هداية القرآن

تأليف

حسين محمد مخلوف

حسنين مخلوف

المدرس بالمعاهد الدينية

الرسالة الأولى

تأثير القرآن فى رقى الانسان — كيفية نزوله — حكمة

تنجيمه — جمعه وتدوينه — مقاصده

وهداياته إجمالاً

المطبعة السلفية ومكتبتها

١١ شارع اللبودية — بالقرب من السيدة زينب بالقاهرة

هداية القرآن

تأليف

حسين سامي

المدرس بالمعاهد الدينية

الرسالة الاولى

تأثير القرآن فى رقى الانسان — كيفية نزوله — حكمة

تنجيمه — جمعه وتدوينه — مقاصده

وهداياته إجمالاً

المطبعة السلفية - ومكتبتها

١١ شارع اللبودية - بالقرب من السيدة زينب بالقاهرة

الطبعة الاولى

١٣٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله مولى النعم ، وبارىء النَّسم ، ومنشئ الخلق من العدم ، والصلاة والسلام على أشرف العرب والعجم ، ورسول الله الى جميع الأمم ، سيدنا محمد الذى بعثه الله على حين فترة من الرسل ، وطول هجعة من الأمم — والناس فى ظلام دامس من الشرك والوثنية ، والأوهام والخرافات ، والجهالات والضلالات ، والأديان المحرفة ، والشرائع المبدلة ، التى طمس نورها ، وحرفت عن مواضعها بما جناه عليها الأحبار والرهبان الذين استحفظوا عليها ، وفى شقاء مستعر من الظلم والاستبداد ، واجحاف الأقوياء بحقوق الضعفاء ، وتحكم المسيطرين من رجال الحكم والدين ، فى دمائهم وأموالهم ، وعقولهم وإرادتهم ، وفى تأخر وانحطاط ، وهمود كأنه سكون الأموات ، وجهل فاضح بوسائل الرقى ، وسنن الكائنات ، ونواميس العمران — وأيده بالقرآن الكريم الذى هو روح من أمره أنزله ليحيىَ به مَواتَ الأمم ، ويبعثها به من أجداث العدم ، وجعله آيته الكبرى الخالدة الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لايتطرق الى ساحته ريب ، ولا يعتوره تحريف ولاتبديل « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » فدعا الناس جميعا بالحكمة والموعظة الحسنة ، الى دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، إلى دين العقل والفكر ، والعلم والحكمة ، والبرهان والحجة ، والضمير والوجدان ،

والحرية والاستقلال ، والعدل والنظام ؛ الى دين الاصلاح العام ، والاخوة العالمية والسلام ، الى الدين الذى صان حقوق الأفراد والجماعات ، وقوّض دعائم الظلم والاستبداد ، وقضى على كل ذرائع الفوضى والفساد ، الى دين الرقى والمدنية ، والسعادة الدنيوية والأخروية ، وهو دين الاسلام الذى ارتضاه الله لعباده ، وأتم به عليهم نعمته ، وحرر به عقولهم وإرادتهم من دجل المخرفين من رجال الأديان ، ليتمتعوا بحريتهم فى الفكر والعمل ، التى هى أعظم دعامة فى بناء مجد الأمم ، وهداهم به الى كل ضروب الاصلاح الدينية والمدنية ، والسياسية والاجتماعية والروحية والخلقية ، وجعل من اتبعه من الفائزين ، ومن أعرض عن هدايته من المخذولين ﴿ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾ ورضى الله عن آله وصحبه الذين نهجوا نهجه ، واتبعوا سنته ، وجاهدوا فى إعلاء كلمة الله فى الارض بأنفسهم وأموالهم ، حتى عمت هداية الاسلام ، وسطع نوره بين الأنام ، ودانت لهم الشعوب ، وخضعت لهم رقاب الجبابرة ، ثم أورثونا من بعدهم ملكا خالداً ، ومجداً تالداً

أما بعد ، فقد نزل القرآن الكريم فى الامة العربية فى عصر كانت فيه أبعد الامم عن مظانّ التطورات الاجتماعية ، التى تأخذ بالشعوب الى منصات الرفعة والسؤدد ، فأحدث فى حياتها انقلابا اجتماعياً خطيراً ما كان متوقعاً فى أى عصر من عصورها ، وما كان ليخطر على فكر أحد أن يكون فيها ، لان الانقلابات الاجتماعية التى ترفع الامم من وهدة الضعة والخمول ، والتفرق والانحلال ، والجهل والفساد الى ذروة الرقى والكمال ، لايمكن حدوثها طفرة دون أن يتهيأ لها استعداد الامة ، ويسبق حدوثها مقدمات تثير الانتباه فى الامة فى آماد طويلة من الزمان ، حتى تختمر فيها روح الانقلاب ، فتفور فورة تحطم بها تراث القديم البالى ، وتقيم على أنقاضه بناء النهضة الجديدة ، وذلك مالم يكن متوفراً فى الامة العربية ، فقد كانت

قبل نزول القرآن فى حالة من الانحطاط تدل الناظر اليها على أنها لم تكد تجتاز عقبة الاجتماع الأولى لو لم تكن عندها الاسرة والقبيلة . وكانت معيشتها البدوية أشبه ما تكون بمعيشة الناس فى عهد طفولة النوع البشرى ، فلم يكن عندها ثقافة منتظمة مبنية على الأسس العلمية الصحيحة ، ولا مدارس ولاجامعات يتخرج فيها أساتذة ينيرون الافكار ويوجهون استعداد الأمة الى النهوض لتجديد نظم الحياة ولا روابط اجتماعية تعدها لأن تكون أمة متحدة تنشد غايات اجتماعية سامية ، ولا دربة فى نظم الحكم والسياسة الرشيدة ، ولا خبرة بالفنون والصناعات التى كانت منتشرة فى دولتى الفرس والرومان ، فضلا عما كان شائعا فيها من ضروب الفوضى والفساد ، وانحطاط الاخلاق والعادات والتقاليد ، فلم يكن منتظراً والحالة هذه أن تظهر هذه الامة طفرة واحدة بذلك المظهر الباهر تنشد أسمى غايات الاجتماع وتحدث فى تاريخ البشرية حدثاً مازال موضع الدهشة عندعلماء الشرق ،والمنصفين من علماء الغرب ، وتنهض نهضة مازالت تعد خارقة لما عرف من السنن الاجتماعية المطردة فى سائر الأمم والشعوب

وكيف لاتعد من خوارق السنن الاجتماعية نهضة قوم كانوا فى جاهليتهم قبائل متفرقة ، وشيعاً متنافرة ، يخبطون فى بيداء الضلال والخرافات والأوهام خبط العشواء ، ويأكلون الجعل والحشرات ، ويعبدون الأوثان والأحجار ، ويقتلون الأولاد ، ويئدون البنات ، ويصرعون العفاف على مذبح الشهوات ، باتخاذ البغايا فى السر والعلن ، ولا يقيمون للمرأة وزنا فى الاعتبار الاجتماعى ، ولا يعرفون من نظم العمران ولامن الفنون والصناعات ولا من علوم الحياة مايؤهلهم لان يكونوا أمة متحضرة فضلا عن أن يقوموا فى الامم مقام المصلح المرشد الذى يملى إرادته وينفذ تعاليمه ، ويقلب أوضاع الحياة ونظم الاجتماع ، فما كاد القرآن ينزل عليهم حتى تبدلوا خلقاً جديداً ، وسرت فيهم روح لم تكن معهودة من

قبل ، ونضوا عنهم ثوب الجاهلية البالى ، وارتدوا رداءً جديداً سداه العلم ولحمته الحكمة ، وخرجوا من عزلتهم فى بطن الصحراء الجرداء الى باحات الاجتماع الفسيحة لينشروا فى الأمم علماً وحضارة ومدنية تنسمت فيها الشعوب نسيم الحياة الهادئة والحرية والعدل بعد أن لفحتهم سموم الظلم قروناً وأحقابا

لو كان الذين نهضوا هذه النهضة هم الرومان أو الفرس لقلنا قوم نضجت مدنيتهم وتجمعت فيهم خصائص الأمم الحية فقاموا ينفخون روح الحياة فى غيرهم من الأمم الميتة ، ولم يكن فى ذلك عجب ولامثار للدهشة ، ولكن العجب كل العجب أن تكون هذه النهضة على أيدى أولئك العرب ، وأن تكون دوحة الحياة التى أظلت الانسانية وحمتها من هجير الظلم نابتة في تلك البقعة الجرداء وأن يقوم هؤلاء الأميون بتعليم الفلاسفة والحكماء ، وإزالة ماتراكم فى الشعوب من ظلمات القرون الغابرة

***

شرع القرآن فى تكوين هذه الامة تكوينا جديداً ليجعلها مصدر الهداية فى العالم الانسانى ، وندبها الى أسمى الغايات وهى إعلاء كلمة الله فى الارض ، وارشاد الامم الى أصول المبادئ الراقية التى تصان بها حقوق الافراد والجماعات . وتجعل حياة البشرى هادئة مطمئنة ، حافلة بكل صنوف السعادة والهناءة والامن والطمأنينة

وسلك فى تكوينها وتوجيه استعدادها الى تلك الغايات السامية مسلكا فذاً لم يخطر على أفكار المصلحين من عظماء الامم ، فاجتث ما نبت فى قلوبها من جذور الشرك والوثنية ورجع بها الى عقيدة الفطرة الصحيحة وهى التوحيد الخالص من شوائب الشرك لتتصل قلوبها بخالق الكون الاعظم ، صاحب السلطة الغيبية العليا وخالق الأسباب والمسببات ، وواضع السنن والنواميس الكونية ، فلا تذعن بالعبودية الا له ، ولا تعرف الاستكانة والخضوع الا لعظمته ، ولا تستعين فيما هو خارج عن دائرة الاسباب والمسببات الا به

مزج القرآن قلوب متبعيه بهذه العقيدة مزجا تاما ، وأحدث فيها من العزة

والكرامة ، والشجاعة والاباء ، والحمية والنجدة ، ما جعل الفرد منهم يصمد لعشرة فى ميدان القتال دون خوف ولا وهن ولا استخذاء ، ونفى بها عن قلوبهم الذلة والمهانة ، والجبن والخور ، والخوف من الموت ، وما الى ذلك من ألوان الضعف

وليس بعجيب أن يكون تأثير هذه العقيدة فى نفوس المسلمين بالغاً هذا المبلغ فان القلب الذى لا يشعر بسلطة غيبية الا الله لا يتطرق اليه الجبن والخوف من أية قوة فى هذا العالم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ ووصف المؤمنين بالحمية فى قوله : ﴿ أشدّاء على الكفار رحماء بينهم ﴾ فلما صفت نفوسهم وصلحت عقائدهم ، أخذ فى اصلاح أخلاقهم ، وتهذيب عاداتهم ، وانارة عقولهم ، لاجتلاء ما فى الكون من آيات الله ، وما فى العوالم المحيطة بهم من الخصائص والقوى الطبيعية لينتفعوا بها فى مصالحهم الضرورية للحياة ، وفك ارادتهم من أغلال الحجر التى كبلهم بها رؤساء الاديان ، وسن لهم القوانين التى تجعلهم آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ومصالحهم ، ليتفرغوا للغايات السامية التى ندبهم اليها ، وهداهم الى أقوم طرق الحكم ، وأمثل نظم السياسة الرشيدة ، وأرقى المبادىء الاجتماعية التى ينبنى عليها صرح النهضة الاسلامية ، وشرع لهم من العبادات ما يزكى نفوسهم ، ويثبت دعائم اليقين فى قلوبهم ، ودعاهم الى التآلف والاتحاد والاخوة الدينية التى تجعلهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وتؤهلهم لوراثة الارض والخلافة فيها لتحقيق العدل بين طبقات البشر ، ولم يدع صفة من صفات الامم الحية الا أورثهم إياها

***

نهض العرب بهذه الهدايات الالهية نهضة لم يعرف لها مثيل فى تاريخ الامم وصلحت بتعاليم القرآن نفوسهم وأرواحهم ، واستنارت بارشاداته عقولهم وسمت هممهم الى تحقيق تلك الغايات العظمى التى ندبهم اليها القرآن ، ونشر العدل فى الامم التى لفحتها نيران الظلم والاستبداد ، فقاموا يبشرون الامم بنزع أغلال

الذلة والعبودية ، و تحرير عقولهم و إرادتهم من سيطرة المفسدين من رجال الحكم والدين ، واستقبال حياة جديدة روحها العدل والأخاء و المساواة ، وانصاف الضعفاء وصيانة حقوق الافراد والجماعات ، فما كادوا يخطون أول خطوة فى تبشير العالم بذلك العهد الجديد حتى فتح الله لهم فتحاً عظيما ، وأظهرهم على أعظم دول الارض قوة و ثروة ، وجنداً وسلاحا ، وحصوناً وقلاعا ، ودربة بفنون الحرب والقتال ، وهما دولتا الفرس والرومان ، فمحوا سلطان دولة الفرس من عالم الوجود ، وأزالوا باسلام شعبها ظلمات القرون الغابرة ، واستولوا على معظم ماكان بأيدى الرومان من الشعوب الشرقية التى ساموها سوء العذاب ، وأرغموا معاطس قياصرتها الجبابرة ، وأنجز الله تعالى لهم — على قلة عَدَدهم وعُدَدهم — ما وعدهم به من استخلافهم فى الارض لتحقيق العدل فيها ، ومن العزة والسيادة على الامم الظالمة بقوله ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ﴾ وقوله : ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ وقوله : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد ﴾ وقوله : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾

قهر المسلمون هاتين الدولتين ، ونشروا فى أرجاء البلاد التى استولوا عليها علومهم وآدابهم وثقافتهم وتشريعهم و غير ذلك من مقومات مدنيتهم التى سطعت مع القرآن من أفق واحد وسارت معه في سماء الحياة خطوة فخطوة ، فوجدت الامم الاخرى أنه لاحياة لها إلا باتباع المسلمين ، والاقتباس من ثمرات مدنيتهم ، و بذلك كان للمسلمين السيادة حتى على الأمم التى لم تخضع لسلطانهم ونفوذهم خضوعا حربيا

فهل كان يتسنى للمسلمين أن يصلوا الى ذلك المجد التليد ، و تلك العظمة الباهرة وأن يتبوّأوا عرش السيادة على الامم لو لم ينفخ القرآن فيهم تلك الروح القوية التى دفعتهم من بطن الصحراء الجرداء الى خوض غمرات الفتح والتعليم والارشاد والتهذيب

وإصلاح أحوال الأمم والشعوب التى لبثت أحقابا وقرونا ترزح تحت نير الاستعباد والاضطهاد ، وينخر فى عظامها سوس الفساد ؟ كلا ، وحرمة الحق وكرامة العلم ما كانوا ليصلوا الى تلك المنزلة السامية لولا تلك الروح التى سرت اليهم من القرآن الكريم فأحيت فى نفوسهم ميت العزائم ، وأثارت فيها روا كد الهمم . ولولا ذلك لظلوا فى صحراء جزيرتهم تأكلهم الاحقاد والضغائن ، وتنشب فيهم مخالب الفتن ، حتى توردهم موارد العدم

***

ظلت الأمة الاسلامية حينا من الزمان تهتدى بهداية القرآن ، وترجع اليه فى جميع أمورها ، وتسترشد بتعاليمه الحكيمة فى تقدمها ونهوضها ، فكانت طوال القرون التى تمسكت فيها بعروته الوثقى قوية البنيان ، ثابتة الاركان ، تخمد فى ساحاتها عاصفات النوازل ، وتنحل بأيدى أقطابها وعظمائها عقد المشاكل ، وترهب صولتها الأمم الاخرى ، وتقتدى بها فى علومها وآدابها ، ونظمها الاجتماعية ، ومذاهبها العمرانية

ثم خلف بعد ذلك خَلْفٌ أهملوا هداية القرآن التى كانت مبعث العظمة ، ومصدر الرقى والنهضة ، وركبوا رءوسهم فى طريق الغواية ، وأخلدوا الى مضاجع الكسل والخمول ، وتركوا النهج الواضح الذى سلكه سلفهم الى طرق ملتوية باعدت بينهم وبين الغايات التى ندبهم القرآن اليها ، وأعرضوا عن ورود مناهله التى روت غليل الانسانية ، فذوت دوحة العظمة الاسلامية ، وانحسر ظلها عن كثير من الأمم التى كانت خاضعة لحكم المسلمين ، وبدأت الشعوب الاسلامية تفقد استقلالها ونفوذها شيئاً فشيئاً حتى وصلت الى تلك الحالة السيئة التى تتقطع منها نياط الافئدة ، وتدمى لاجلها الاكباد

وبينما الامم الاسلامية تهبط من عليائها مجدها الى حضيض الضعف والفقر

و الاستكانة ، إذا بالأمم الاخرى قد نفضت عنها غبار الكسل و الخمول ، وأخذت في استخدام عقولها و مواهبها في اختراع وسائل القوة ، و الاستيلاء على منابع الثروة ، ونهضت بالقوة و المال فاستولت على كثير من الاقطار الاسلامية ، وتحكمت في مصايرها ، و استذلت أبناءها ، و هاهي الآن تحاول إكراههم على ترك دينهم تارة بالاكراه و العنف ، و أخرى بالاغراء و الخديعة

كل ذلك يحدث في البلاد الاسلامية و المسلمون في غمرة ساهون ، و عن مداواة أمراضهم غافلون

تركوا تدبر القرآن ، و غفلوا عن هدايته العليا ، وقصروا اهتمامهم به في هذا العصر على استماعه في بعض المحافل العامة أو الخاصة من القراء المطربين ، وفي المساجد يوم الجمعة — وإن كان أكثرهم الآن لا يؤدون فريضتها — والتبرك باقتناء مصاحفه ، و قراءته على المقابر ، وكتابة بعض آياته في صحاف ومحوها ببعض السوائل لاتخاذها علاجا لمداواة بعض الامراض كما هو شائع في القرى التي لم يسطع في آفاقها نور الهداية الصحيحة ، واتخاذ التمائم والتعاويذ من بعض سوره ، الى غير ذلك من الاغراض التي لا تمت بصلة الى هدايته ، ومن و اظب منهم على تلاوته قرأه غافلا عن معناه ، لذلك لم يؤثر في نفوسهم تأثيراً يسمو بها الى المجد ، ويحفزها للنهوض و الوثوب الى ذروة العظمة و العزة ، ولم يصلح مافسد من أخلاقهم و عاداتهم و نظم حياتهم ، وغير ذلك من شؤنهم ، وكيف يؤثر فيهم و يصلح أحوالهم و هم عنه في غفلة معرضون ؟

فلا عجب إذا رأينا الامة الاسلامية قد ساءت أحوالها الى درجة تكاد أن تدخل اليأس على قلوب المصلحين الغيورين على مجدها و عظمتها من إرجاعها الى سيرتها الاولى

***

آلمتني هذه الحالة السيئة التي وصل اليها المسلمون باعراضهم عن هداية القرآن

فأخذت على عاتقي أن أكون من العاملين في تنبيه المسلمين الى الخطر الداهم المحدق بهم إذا ظلوا على هذا الاعراض ، و بدأت فى تنفيذ هذه الفكرة بالقاء محاضرات الارشاد فى أندية الجمعيات الاسلامية وفوق منابر المساجد يوم الجمعة ، وفى الدروس العامة التى كنت ألقيها بعد الصلاة ، و بذلت جهدى فى بيان الآثار السيئة التى نجمت عن إعراضنا عن القرآن ، ولكنى رأيت بعد ذلك أن الداء مزمن لايكفى فى علاجه هذا المجهود الضئيل ، وأن الاقتصارعلى إلقاء الخطب والمحاضراتودروس الارشاد لايأتى بالثمرة المطلوبة لان أكثر الطبقات المتعلمة من المسلمين لايؤمّون أندية الجمعيات ، ولا يؤدون فريضة الجمعة فى المساجد ، وهم الذين تتوقف على تلون استعدادهم واتجاهها مصاير البلاد ، فعزمت على توسيع دائرة الارشاد العامة باصدار عدة من الرسائل السهلة المأخذ ، أبين فيها ضروب هداية القرآن ومقاصده وأغراضه ، ومناحى إصلاحاته العامة ، ومبادئه التى نبنى عليها صرح مجدنا وعظمتنا بيد أنى أعلم علم اليقين أنى سأستهدف لغرامات مالية ، ومتاعب جسمانية ، ولكن نبل الغاية هون علىّ كل ذلك ، ويقينى بفضل الله أرانى قصىّ الآمال قد أصبح منى على طرف الثمام ، فبدأت باصدار الرسالة الاولى ، وجعلتها مشتملة على التعريف بالقرآن الكريم ، وكيفية نزوله على رسول الله ﷺ ، و الحكمة فى نزوله مفرقا ، وكيفية جمعه و ترتيبه و تدوينه ، لأنها بحوث ضرورية لابد لكل مسلم أن يعرفها حتى لاتدخل عليه شبهة فى متن القرآن ، ثم قفيت على ذلك ببيان أغراضه ومقاصده العامة بالاجمال ، وسأعقبها إن شاء الله بتفصيل ما أجملت فى الرسائل الآتية ، وأسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به المسلمين ، وأن يوفقنى الى إنجاز ما انتويت إصداره من هذه الرسائل ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالاجابة جدير ؟

حسين سامى

الباب الأول

القرءان الكريم

القرآن الكريم : هو كتاب الله الحكيم ، وآيته الكبرى ،وهدايته العظمى ، ونوره المبين ، وصراطه المستقيم ، أنزله على رسوله محمد ﷺ ليخرج به الناس من الظلمات الى النور ، ويهديهم الى صراط العزيز الحميد

مبدأ نزوله وختامه : وقد ابتدأ نزوله من ليلة اليوم السابع عشر من رمضان لسنة الحادية والأربعين من ميلاده ﷺ ، حيث أوحى اليه فى غار حراء الذى كان يتحنث (يتعبد) فيه أول آيات من القرآن وهى قوله تعالى ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ﴾ وتم نزوله فى اليوم التاسع من ذى الحجة يوم الحج الأكبر لسنة العاشرة من الهجرة والثالثة والستين من ميلاده عليه الصلاة والسلام حيث أوحى اليه آخر آية منه وهى قوله تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا ﴾ فالمدة بين مبتدأ التنزيل ومختتمه اثنتان وعشرون سنة وشهران واثنان وعشرون يوما

والليلة التى ابتدأ فيها نزول القرآن هى ليلة القدر التى قال الله تعالى فيها ﴿ انا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر ﴾ وقال فيها ﴿ انا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً

من عندنا ، انا كنا مرسلين[١] ﴾ ولا نزاع فى أن هذه الليلة كانت فى شهر رمضان لقوله تعالى ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدًى للناس و بينات من الهدى والفرقان ﴾ وانما الخلاف فى تعيينها لكثرة ما ورد فيها من الروايات ، ويميل ابن اسحاق الى أنها كانت ليلة اليوم السابع عشر من رمضان فى السنة التى بُدىء فيها نزول القرآن

وأما يوم الختام فهو يوم الجمعة يوم عرفة عام حج النبى ﷺ حجة الوداع ، يدل على ذلك ما رواه البخارى بسنده عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رجلا من اليهود قال له يا أمير المؤمنين : آيةٌ فى كتابكم تقرءونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، قال : أى آية ؟ قال : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾ قال عمر : قد عرفنا ذلك اليوم ، والمكان الذى نزلت فيه على النبى ﷺ ، وهو قائم بعرفة يوم جمعة[٢] »

ولم ينزل على النبى ﷺ بعد هذه الآية شىء من الفرائض ولا تحليل شىء ولا تحريمه ، ولم يعش عليه الصلاة والسلام بعد نزول هذه الآية الا احدى وثمانين ليلة

---

(١) ظن كثير من الناس أن الليلة المباركة المذكورة فى هذه الآيات هى ليلة النصف من شعبان وانتحلوا لها من الخصائص مالم ينزل به سلطان ، وهذا خطأ صريح منشؤه الوهم الذي سرى بين المسلمين من عهود بعيدة ، والقرآن نفسه صريح فى تفنيد هذا الظن الباطل ، لان أول الآية « انا أنزلناه فى ليلة مباركة » يدل على أن مبدأ نزول القرآن كان فيها ، وقد صرح الله فى سورة القدر بأن مبدأ نزول القرآن كان فى ليلة القدر ، فتكون الليلة المباركة هى ليلة القدر عينها ، وهى احدى ليالى رمضان لان نزول القرآن كان فى أثنائه كما يدل عليه قوله تعالى « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » الخ . فادعاء أن الليلة المباركة هى ليلة النصف من شعبان ادعاء باطل يناقض صريح القرآن

(٢) روى البخاري هذا الحديث فى عدة مواضع من صحيحه ورواه أصحاب السنن الا أبا داود

كيفية نزول القرءان

نزل القرآن الكريم فى تلك المدة منجما [١] فربما نزلت الآية المفردة ، وربما نزلت آيات عدة الى عشر كما صح عند أهل الحديث فيما انتهى اليهم من طرق الرواية ، فقد نزلت عشر آيات فى قصة الافك جملة [٢] ، ونزلت عشر آيات من أول المؤمنين جملة [٣] وصح نزول ﴿ غير أولى الضرر ﴾ وحدها وهى بعض آية [٤]

ومن السور القصار ما كان ينزل جملة ، ومنها ما كان ينزل مفرقا

فمن أمثلة الاول : سورة الفاتحة ، والاخلاص ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، وتبت ، والنصر ﴿ اذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ، والكوثر ، والعصر ، ولم يكن ، والمعوذتان ﴿ قل أعوذ برب الفلق — وقل أعوذ برب الناس ﴾ والمرسلات

ومن أمثلة الثانى : سورة اقرأ أول ما نزل منها الى قوله تعالى ﴿ علّم الانسان مالم يعلم ﴾ ثم نزل باقيها بعد ، وسورة الضحى نزل منها أولا الى قوله تعالى ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ ثم نزل باقيها بعد ذلك

---

(١) مفرقاً الى أجزاء ، كل جزء منها يسمى نجما

(٢) كما ورد فى حديث الصحيحين المروي من طرق عدة ، وهو حديث طويل

(٣) يدل على نزولها جملة مارواه الامام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : كان اذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى يسمع عند وجهه كدوي النحل ، فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال : « اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا — ثم قال — لقد أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ : « قد أفلح المؤمنون » حتى ختم العشر ، ورواه الترمذى فى تفسيره ، والنسائى فى الصلاة

(٤) يدل على ذلك مارواه البخارى فى كتاب الجهاد من حديث البراء بن عازب قال : لما نزلت لايستوى القاعدون من المؤمنين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيداً ، فجاء بكتف فكتبها ، وشكا ابن أم مكتوم ضرارته فنزلت لايستوى القاعدون من المؤمنين غيرأولى الضرر ، وفى هذه الرواية ابهام وضحته الرواية التى رواها البخاري أيضاً بعدها عن سهل بن سعد الساعدى وفيها التصريح بأن الذي نزل « غير أولى الضرر » وحدها

ولم ينزل من السور الطوال سورة بتمامها إلا سورة الأنعام ، فقد روى كثير من المحدثين نزولها جملة عن غير واحد من الصحابة والتابعين لانها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد ، وإبطال مذاهب المشركين والملحدين والمكذبين بالبعث والنشور ، وهى من مقاصد الدين الاساسية التى لايتوقف نزول آياتها على سؤال أو حادثة أو سبب يقتضى إنزالها ، ورجح ذلك الامام الرازى فى تفسيره الكبير ، والقرطبى وغيرهما من علماء التفسير ، ولم يضعفه إلا الاستاذ الآلوسى فى روح المعانى ، فانه استشكل نزولها جملة واحدة ، وقال كيف يمكن حينئذ أن يقال فى كل واحدة من آياتها إن سبب نزولها الامر الفلانى ، ولكن هذا الاستشكال ضعيف ، لأن ما ذكروه فى أسباب نزول آياتها بعضه لايصح والبعض الآخر لايدل على نزول تلك الآيات متفرقة ، لأن غاية ماقالوه أن تلك الآية نزلت فى كذا وكذا ، أو فى قول المشركين كيت وكيت ، فاذا صح كان معناه أن تلك الآيات نزلت بعد تلك الوقائع و اقوال مبينة حكم الله فيها ، وهذا لاينافى نزولها دالة على ذلك فى ضمن السورة

أما بقية سور القرآن فقد نزلت منجمة متفرقة

شبهة المشركين فى تنجيم القرءان

كان نزول القرآن منجما مثاراً لعجب المشركين ، ومنشأ لاعتراضهم عليه ، فقد سمعوا أن الكتب السماوية السابقة كانت تنزل على الرسل جملة واحدة كما نزلت التوراة على موسى عليه السلام فى الالواح مرة واحدة[1] فقالوا اذا كان القرآن

---

(١) أنكر بعض العلماء نزول التوراة على موسى صلى الله عليه وسلم جملة واحدة ، وقالوا انه لادليل عليه ، وانها نزلت مفرقة كالقرآن الكريم . وهذا خطأ ترده الادلة الصريحة في أنها نزلت جملة واحدة ، فمن هذه الادلة قوله تعالى « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » فانها نزلت لما قال اليهود والمشركون للنبي صلى الله عليه وسلم لولا أنزل القرآن

قد نزل على محمد ﷺ من عند الله حقاً كما يدّعى فما باله لم ينزل عليه جملة واحدة كما نزلت التوراة على موسى ؟ وما باله تنزل منه الآية أو الآيات تلو الآية أو الآيات فى أزمنة متطاولة ؟ أليست سنة الله فى انزال الكتب واحدة ؟ ألا يكون

جملة واحدة كما أنزلت التوراة يدل على ذلك مارواه ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قالت اليهود يا أبا القاسم لولا أنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى ، فنزلت (الآية) وأخرجه من وجه آخر عنه بلفظ قال المشركون ، والقرآن وان لم يصرح بقولهم كما أنزلت التوراة جملة واحدة على موسى ، فان سكوته تعالى عن الرد عليهم فى ادعائهم نزول التوراة جملة واحدة وعدوله عنه الى بيان حكمة نزول القرآن مفرقا دليل على صحة قولهم هذا ، والا فلو كان ادعاؤهم نزول التوراة جملة باطلا ، ولو كانت الكتب كلها نزلت مفرقة لكان يكفي فى الرد عليهم أن يقول ان ذلك سنة الله فى الكتب التي أنزلها على الرسل السابقين كما رد عليهم بمثل ذلك فى كثير من شبههم ، مثل قولهم « مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق » فأجابهم بأن ذلك سنة الله فى جميع الرسل بقوله : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق » ومثل قولهم «أبعث الله بشراً رسولا» فرد عليهم بقوله « وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم » ومثل قولهم : كيف يكون رسولا ولا هم له الا النساء ، فأجابهم بقوله : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية » الى غير ذلك

ومن الادلة على نزولها جملة قوله تعالى فى انزاله التوراة على موسى يوم الصعقة «فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ، وكتبنا له فى الالواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة » فانه صريح فى أن الله تعالى أنزل عليه ألواح التوراة مكتوبة جملة واحدة وأمره أن يأخذ بما فيها بعزيمة قوية ، فأخذها موسى ورجع الى قومه ليبلغهم اياها فوجدهم عكوفا على عبادة العجل فألقى الالواح كما قال تعالى « ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الالواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه » « ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الالواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » فتصريحه تعالى بأنه أنزل اليه الالواح ، وأمره أن يأخذها بقوة ، وبأن موسى ألقى الالواح عند ما ثار به الغضب لعكوف قومه على عبادة العجل ، وبأنه أخذها بعد أن سكت عنه الغضب يدلنا بصراحة على أنها نزلت عليه جملة وأخذها الى قومه بتمامها ، ويؤيد ذلك أن موسى عليه السلام لما أمرهم بامتثال ما فيها شق عليهم أن يأخذوا بتلك التكاليف دفعة واحدة وأبوا أن يمتثلوا حتي نتق الله الجبل فوقهم فخضعوا وامتثلوا وفى ذلك نزل قوله تعالى « واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما اتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون » ولوكان نزول التوراة متفرقاً والتكليف بها كذلك لما شق عليهم امتثالها ولما نفروا عن موسى حتي هددوا باسقاط الجبل عليهم بعد أن نتق فوق رءوسهم كأنه ظلة ، فادعاء بعض العلماء أنه لادليل على نزول التوراة جملة واحدة ادعاء باطل يرده ماذكرناه من هذه الادلة

مجيئه هكذا مفرقا دليلا على أن محمداً ﷺ يصطنعه ثم يقول هذا من عند الله ؟

وليست هذه الشبهة بأولى جهالاتهم ، فقد قالوا فى القرآن الكريم ماهو أشنع من هذا ، وغالطوا حسهم وعقولهم ، وكابروا وجدانهم وما تشهد به فطرهم ، وما اعترف به أولو الرأى منهم ، فقالوا ﴿ إنْ هذا إلا أساطير الاولين ﴾ ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ ﴿ وقالوا إنْ هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ ﴿ وقالوا ماهذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا إلا سحر مبين ﴾ ﴿ واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ﴾ ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ وقال طاغيتهم الوليد بن المغيرة ﴿ انْ هذا إلا سحر يؤثر ، ان هذا إلا قول البشر ﴾ ﴿ وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ وهكذا شأن كل جهول يحكم على الاشياء بجهله ، وبما يوحيه اليه فساد استعداده ، وتصوره له سخافة فكره . وجهلوا أن نزوله منجما أمر اقتضته حكمة الله التى سمت عن عقولهم ، وضلت عنها أفكارهم ، وأنه لولاه لما أحدث القرآن الكريم فى الامة العربية ذلك الانقلاب العجيب الذى سرى أثره فى الامم الاخرى فكان حداً فاصلا بين عهدين ، عهد طفولة النوع البشرى ، وعهد بلوغه أشده واستكماله خصائصه التى ميزه الله بها على كثير من خلقه

وقد حكى الله تعالى شبهتهم هذه فى سورة الفرقان بقوله ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ وفندها ورد عليهم بقوله ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ فبين أن حكمة تنجيمه هى تثبيت فؤاد النبى ﷺ فى مواطن اللجاج والخصومة بينه وبين المكابرين من أعدائه واقتصر فى بيان حكمة تنجيم القرآن على هذه الحكمة لمناسبة المقام ، فانهم كانوا يظنون أن هذه الشبهة الواهية التى شنعوا بها على القرآن كافية فى هدم دعائم الدعوة المحمدية ، فعكس الله تعالى عليهم ظنهم وبين أن تنجيمه من

أقوى العوامل فى تثبيت قلبه ، وتقوية شوكته . واحكام دعوته . واقتصارُ القرآن على هذه الحكمة فى مقام الرد على المشركين لاينافى أن لتنجيمه حكما أخرى يجتلى البصير نورها إذا تأمل فى المناسبات التى نزل القرآن لاجلها ، والغرض المنشود من انزاله كله ، والظروف التى أحاطت بالرسول والمسلمين حين نزوله ، وقد تأملنا فى ذلك فهدانا الله بعد البحث المستفيض ، و إمعان الفكر ، وإجالة الروية الى بعض تلك الحكم الجليلة . و إليك بيانها :

الحكم فى تنجيم القرءان

نزل القرآن الكريم منجما لحكم جليلة ترجع اجمالا الى ما يأتى :

(١) أن نزوله منجما كان (ا) بحسب الوقائع والحوادث التى كانت تحصل فى المجتمع الاسلامى على عهد نزول التشريع (ب) والاسئلة والمقترحات التى كانت توجه من المسلمين أو غيرهم الى رسول الله ﷺ (حـ) والشبه التى كانت تختلج فى قلوب المشركين و يظهر القول بها على ألسنتهم (ء) وما تقتضيه حالة المسلمين فى أوقات السلم من تقرير عقائد الدين وشرائعه وفضائله وقوانينه العامة التى يراد بها تنظيم المجتمع الاسلامى ، وتكوين أمة فتية متمتعة بكل خصائص الامم الحية ، وحالتهم فى أوقات الحرب من الحث على الجهاد ، والغرض الذى يجب أن يقصد منه و بيان الاحكام المتعلقة به كتقسيم الغنائم والفىء وحكم الاسارى وما الى ذلك

(٢) انه نزل تدريجيا ليكون أبلغ فى التحدى ، وأظهر لاعجاز القرآن

(٣) انه نزل كذلك للتدريج فى تربية الامة العربية تربية دينية وخلقية واجتماعية ، واعدادها لمنزلة الخلافة فى الارض ، ولقيامها مقام المصلح لما فسد من عقائد الامم ، وما تسفل من أخلاقها وعاداتها وتقاليدها وما اختل من أحوالها العامة ونظمها الاجتماعية

(٤) وليسهل حفظه وفهمه والعمل به على المسلمين ، وامتزاجه بدمائهم حتى يصير جزءا من نسيجهم العقلى ، ليمكنهم أن يضطلعوا بأعباء الدعوة الاسلامية بعد رسول الله ﷺ على بصيرة وهدى ، وأن يسيروا فى هداية الامم على نهج واضح لاتلتوى عليهم سبل الارشاد ، ولا تبعد عنهم الغايات التى ندبوا لتحقيقها فى العالم الانسانى

(٥) وليثبت الله تعالى به فؤاد النبى ﷺ فى مواطن الخصومة حتى لايبرّح به الحزن على عدم اسراع قومه الى الهداية ، وتلك الحكمة هى التى صرح بها القرآن فى رده على شبهة المشركين الواهية ، واقتصر عليها لمناسبة المقام كما أسلفنا . واليك تفصيل تلك الحكم :

الحكمة الاولى

ان نزوله منجما كان بحسب الوقائع والحوادث التى كانت تحصل فى المجتمع الاسلامى فى عهد التشريع فتنزل الآيات مبينة حكم الله فيها ، والاسئلةِ التى كان يوجهها المسلمون أو غيرهم الى رسول الله ﷺ فتنزل الآيات جوابا عنها ، والشبهِ التى كانت تختلج فى قلوب المشركين وغيرهم من أعداء الاسلام فتنزل الآيات لدحضها بالحجج الساطعة ، والبراهين القاطعة ، وما كانت تقتضيه حالة المسلمين فى أوقات السلم والحرب

فمن أمثلة الاول وهو الوقائع التى كانت تحدث فى المجتمع الاسلامى فيحتاج المسلمون الى معرفة حكم الله فيها، حادثة مرثد الغنوى الذى أرسله النبى ﷺ الى مكة ليخرج منها قوما مسلمين مستضعفين ، فلما وصل اليها عرضت امرأة مشركة نفسها عليه وكانت ذات مال وجمال فأعرض عنها خوفا من الله ، ثم أقبلت عليه تريد زواجه فقبل ، ووقف ذلك على اذن رسول الله ﷺ ، فلما قدم المدينة عرض قضيته على رسول الله ﷺ وطلب اجازة ذلك النكاح ، فنزل قوله تعالى ﴿ ولا تنكحوا

المشركات حتى يؤمنّ ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبدٌ مؤمنٌ خير من مشرك ولو أعجبكم ، أولئك يَدْعونَ الى النار والله يدعو الى الجنة والمغفرةِ باذنه ، ويُبيِّنُ آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ وحادثة الوليد بن عقبة أخي عثمان رضى الله عنه لامه ، بعثه النبي ﷺ الى بني المصْطَلق ليأخذ صَدَقاتهم — وكان بينه وبينهم إحنٌ وعداوات — فلما سمعوا به استقبلوه ، فحسب أنهم مقاتلوه ، فرجع وقال لرسول الله ﷺ إنهم ارتدوا ومنعوا الزكاة ، فهمّ عليه الصلاة والسلام بقتالهم ، فنزل قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ وحادثة خولةَ بنتِ ثعلبة التي ظاهر منها زوجها أوسُ بنُ الصامت ثم ندم على ما فعل وقال ما أظنكِ إلا قد حَرُمْتِ عَليّ ، فشق ذلك عليها فأتت رسول الله ﷺ وشكت اليه ، وقالت يارسول الله ان لي منه صبية صغاراً إن ضممتهم إليّ جاعوا ، وإن ضممتهم اليه ضاعوا ، فقال ما أراك إلا قد حرمت عليه ، فاستقبلت السماء تشكو الى الله تعالى ، فنزل قوله تعالى ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ الى آخر آيات الظهار ، وحادثة جميلة بنت عبد الله بن أُبيّ بن سلول ، كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس ، فأتت رسول الله ﷺ فقالت يارسول الله ثابت بن قيس ماأعتب عليه في خلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الاسلام ، وورد في بعض الروايات مايفسر سبب هذا البغض ، فقد قالت : لقد رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل في عدة فاذا هو أشدهم سواداً ، وأقبحهم وجهاً ، وأقصرهم قامة ، فنزلت آية الخلع ﴿فان خفتم أن لايقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ فردت عليه حديقة كان أمهرها بها وطلقها تطليقة ، وحادثة عويمر العجلاني وامرأته ، وحادثة هلال بن أمية وامرأته اللتان كانتا سببا في نزول آيات اللعان ، وهي قوله تعالى : « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع

شهادات بالله انه لمن الصادقين ﴾ الى آخر الآيات الخمس ، وحادثة فتنة اليهود التى أثاروها عندما حولت القبلة من جهة بيت المقدس الى جهة المسجد الحرام بعد هجرة النبى ﷺ الى المدينة بسبعة عشر شهراً فنزلت فيها الآيات من أول قوله تعالى ﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ـ الى قوله ـ لعلكم تهتدون ﴾ وهى تسع آيات ، وحادثة نصارى نجران الذين وفدوا على رسول الله ﷺ فذكروا عقائدهم ، واحتجوا للتثليث وألوهية المسيح بكونه خلق على غير السنة المعروفة فى توالد البشر ، وبما جرى على يديه من الآيات وبالقرآن نفسه فانزل الله تعالى نحواً من ثمانين آية من أول سورة آل عمران للرد عليهم وتفنيد شبههم .الى غير ذلك من الوقائع والحوادث التى يطول عدها واستقصاؤها

ومن أمثلة النوع الثانى : وهى الاسئلة التى كانت تصدر من المسلمين أو غيرهم الى رسول الله ﷺ والمقترحات التى كان المشركون يعرضونها عليه قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما . ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل العفو ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ، فى الدنيا والآخرة . ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير ، وان تخالطوهم فاخوانكم ، والله يعلم المفسد من المصلح ، ولو شاء الله لاعنتكم ان الله عزيز حكيم ، ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ وقوله تعالى ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجدِ الحرام وإخراجُ أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ﴾ وقوله ﴿ ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون ن تنكحوهن ﴾ الخ وقوله : ﴿ يستفتونك ، قل الله يفتيكم فى الكلالة ﴾ وقوله :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا » وقوله : « ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا » الخ وقوله : « يسألك الناس عن الساعة ، قل انما علمها عند الله » وقوله في حكاية مقترحات المشركين ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت الا بشراً رسولا ﴾ الى غير ذلك من المقترحات ، فكان الرسول عليه السلام اذا وجه اليه سؤال من المسلمين أو غيرهم أو اقترح عليه المشركون شيئاً نزلت الآيات بالجواب الشافى عن تلك الاسئلة والمقترحات ، وظاهر جداً أنها لم تكن جميعاً فى وقت واحد ، بل كانت فى أزمنة مختلفة فكان ضروريا أن تنزل الآيات فى أزمنة مختلفة أيضاً

ومن أمثلة النوع الثالث : وهو الشبه التى كانت تختلج فى صدور المشركين وأعداء الاسلام ويظهر القول بها على ألسنتهم ، ليفتنوا ضعفاء الايمان فى دينهم . الآيات التى حكى الله فيها شبههم وفندها ودحضها بالحجج الدامغة مثل قوله تعالى « وقال الذين كفروا ان هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً » « وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض انه كان غفوراً رحيما ، وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا ، انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » ومثلها الآيات التى نزلت فى الرد على منكرى البعث والنبوة وغيرهما من عقائد الاسلام ، وهى كثيرة فى القرآن

ومن أمثلة النوع الرابع : الآياتُ التى كانت تنزل فى أوقات السلم لتقرير عقائد الدين ، و بيان شرائع الاسلام ؛ وفضائل الآداب والاخلاق ، ومحاسن العادات ، و بيان جلائل العبر والسنن الاجتماعية فى قصص الانبياء والمرسلين والامم الماضية والآياتُ المتعلقة بشئون الحرب ، كآيات الحث على الحرب والجهاد فى سبيل الله دفاعاً عن العقيدة و تأميناً للحرية الدينية ، والآيات التى نزلت فى الغزوات سواء أكانت فى أثنائها أم بعد انتهائها لتقرير الاحكام المتعلقة بها كالآيات التى نزلت فى غزوة بدر وغنائمها فى سورة الانفال والتى نزلت فى غزوة أحد فى سورة آل عمران من أول قوله تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين الخ » والتى نزلت فى بدر الاخرى وهى قوله تعالى « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » الى آخر الآية التى بعدها ، والآيات التى نزلت فى غزوة بنى النضير وفى كيفية قسمة الفىء الذى أخذه المسلمون من أموالهم فى سورة الحشر من أول قوله تعالى « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر » الخ والتى نزلت فى غزوة الاحزاب فى السورة التى سميت بهذا الاسم من أول قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها » الى آخر الآيات والتى نزلت فى غزوة بنى قريظة وقد ذكرت فى السورة نفسها فى قوله تعالى « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم » الخ والتى نزلت فى عهد الحديبية وقد ذكرت فى سورة الفتح من أول قوله تعالى « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله » الخ والتى نزلت فى غزوة تبوك فى سورة التوبة وهى أطول مانزل من الآيات فى الغزوات من أول قوله تعالى يأيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض » الى قرب آخر السورة ، وفيها فضح الله سرائر المنافقين ، وأطلع المسلمين على دسائسهم وافسادهم

وطبيعى أن هذه الوقائع والحوادث التى كانت تحصل فى المجتمع الاسلامى على

عهد نزول القرآن وكذلك الاسئلة والمقترحات التى كانت توجه الى الرسول ﷺ والشبه التى كان يثيرها أعداء الاسلام ، واختلاف حال المسلمين فى أوقات الحرب والسلم ، لم تكن كلها فى وقت واحد حتى تنزل الآيات المتعلقة بها جملة ، بل كانت فى أزمنة متفاوتة كما هو الشأن فى أمثالها ، فكانت الضرورة الحتمية التى لا مفر منها ولا محيص عنها أن تنزل الآيات التى تبين حكم الله فيها وجواب ما يوجه منها الى الرسول وتفنيد مايجول من الشبه فى القلوب فى أزمنة مختلفة ، وأوقات متفرقة ، ليكون نزول الايات عند الحاجة اليها أوقع فى النفوس ، وأشد جرياً على مقتضى الحكمة ، اذ أنه غير معقول أن تنزل آيات فى وقائع لم تحدث بعد ، أو أجوبة عن أسئلة لم تخطر على فكر أحد ، ولا يتصور خلاف هذا الامصاب فى عقله مطموس على بصيرته

فأنت ترى أن طبيعة الظروف المحيطة بالرسول والمسلمين استلزمت تنجيم القرآن استلزاما حتميا ، وان نزوله مفرقا كان مقتضى الحكمة الالهية التى سمت عن عقول الذين اعترضوا على نزوله على هذا النحو ، واقترحوا أن ينزل جملة واحدة كما نزلت التوراة من قبل على موسى عليه الصلاة والسلام جملة واحدة فى الالواح ولو أنهم تفطنوا لتلك الظروف لكفوا عن هذا الاقتراح الذى دل على سخافة عقولهم وفساد تصورهم وتفكيرهم

الحكمة الثانية

ان تنجيمه أبلغ فى التحدى ، وأظهر فى بيان الاعجاز ، ولبيان ذلك نقول :

نزل القرآن ليكون معجزة الرسول الكبرى ، وليتحدى به النبى ﷺ العرب ، حتى إذا عجزوا عن معارضته ثبت لديهم أنه ليس من كلام محمد ﷺ وإنما هو كلام الله العليم الخبير

وقد تحدى به النبى ﷺ العرب ، وهم اللُّدُّ الخصمون ، الذين لا يشكون أن البلاغة طوع أمرهم ، وملك قيادهم ، لانهم ملكوا زمامها ، وجروا فى كل فن من فنونها شوطاً بعيداً . فتقاولوا فى الحماسة والفخر ، وتطاولوا فى المدح والهجو ، وأكثروا فى الرثاء والوصف ، وما تركوا شيئا يحيط بهم إلا تناولوه بألسنتهم فجاءهم القرآن الكريم ببلاغته الرائعة ، التى أدهشت عقولهم ، وحيرت ألبابهم ، فوجدوا أمامهم كلاما محكم النسج ، قوى المنزع ، متين الديباجة ، رصين الاسلوب لا تنبو فيه كلمة عن موضعها ، ولا يتخاذل فيه شىء من أسلوبه ، ولا يظهر فيه أثر من وهن الطبع ، ولا ضعف الكلام الانسانى ، كما هو الشأن فى كلام البلغاء الذين يعتريهم شىء من تخاذل الروح وضعف المزاج النفسى يظهر أثره فى كلامهم ، ولا تواتيهم الفطرة البيانية بالقوة فى جميع أساليبهم ، فيجد النقاد فى موضع الضعف من كلامهم مغمزاً ومطعنا يسلطون عليه سيف نقدهم الصارم ، فلو كان القرآن نزل كله جملة واحدة ، وتحداهم النبى ﷺ بجملته — وهو ممتد النسق ، بعيد الغاية — لكان لهم وجهٌ من العذر يُلْبِس الحق بالباطل . ولقالوا إنَّ عجزنا عن معارضته ليس لضعف فى قدرتنا البلاغية ، وإنما صَدَفتْ نفوسنا عنه لطوله ، لان للقوة النفسية حداً إذا حملت على ماوراءه كان من طبعها أن تنتهى الى ما دونه ، ولما أفحمهم الدليل فى تحديهم بالاتيان بمثله ، فكان مقتضى الحكمة أن ينزل مفرقا ، وأن يكون نزول الآية أو الآيتين أو الآيات من آياته فى مدة يعرفون مقدارها بما ينزل عقبها من الآيات ، وأن يتحداهم الرسول بالاتيان بمثل تلك الآيات فى مثل تلك المدة ، ليكون عجزهم عن الاتيان بمثلها أبلغ فى إفحامهم ، وأظهر لاعجاز القرآن ، لانه يقطع عليهم سبل المعاذير التى كان يمكن أن يحتجوا بها لو كان نزوله جملة ، وكان التحدى به على هذا الوجه . وهذا ما كان ، فقد كانت الآيات تنزل فى فترات من الزمان بحسب المقتضيات التى أسلفنا بيانها فى الحكمة الاولى ، وكان

الرسول ﷺ يتحداهم بها ، و يصارحهم بأنهم لن يستطيعوا معارضتها و الاتيان بمثلها ، ليلهب نفوسهم ، و يثير فيهم الهمة و النشاط للاتيان بمثلها أو مايقاربها ، فلم يكن منهم إلا الفشل التام ، و الاحجام المخزى ، و الادعاء مع العجز بقولهم « لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الاولين » وما قالوا شيئا ولا قدروا على شيء ، بل رضوا ببذل مهجهم و إنفاق أموالهم ، و الجلاد بسنانهم فى الحروب الطاحنة لصد دعوته ، بدل معارضته بالآيات و جداله بألسنتهم ، مع أن المعارضة كانت أبلغ فى صد دعوته لو قدروا عليها ، أليس إحجامهم عن معارضة بعض آياته إذاً مع انفساح المدة و تراخى الاجل أعظم دليل على عجزهم التام عن معارضة القرآن كله ، و على أن بلاغة القرآن أسمى من متناول قُدَرِهم ، وانه معجز حقاً ، والا فما بالهم يحجمون لو كانوا قادرين ؟

الحكمة الثالثة

التدرج فى تربية الامة العربية تربية دينية وخلقية و اجتماعية

لعلنا لانحتاج الى الاطالة فى بيان ماوصلت اليه الامة العربية من الفساد و الانحطاط فى عهد الجاهلية فى عقائدها و أخلاقها و عاداتها و نظمها الاجتماعية ، وغير ذلك من شئونها ، فان ذلك أمر معلوم لكل من له أدنى إلمام بتاريخ تلك الامة ، و قد أفاض فيه المؤرخون إفاضة تجعل الواقف على حياتها يقطع بانها كانت قد وصلت الى درجة من الانحطاط ليس بعدها إلا التلاشى والزوال والعدم والخروج من عداد الأمم الحية (١)

---

(١) راجع كتاب بلوغ الارب فى معرفة أحوال وعادات العرب لعلامة العراق المرحوم السيد محمود شكرى الالوسي لتعرف ما انتشر فى الامة العربية فى جاهليتها من معتقدات زائغة ، وأخلاق مستهجنة ، وخرافات مزرية ، وعادات مرذولة الى غير ذلك من أمارات الانحطاط ، فهو أجمع كتاب فى هذا الموضوع على ما أعتقد ، وهو ثلاث مجلدات جمعها مؤلفها من أوثق المصادر

ولئن كان قد بقى فى بعض جهاتها أثارة من حضارة ، أو بصيص من نور المعرفة ببعض ماهو ضرورى لحياتها ، فذلك لأن الامم لاينمحى ما كان فيها من علم وحضارة انمحاء تاماً مهما تكن منحطة ، ولكن ذلك البصيص كان مغمورا بظلمات داجية من الضلال والجهل ، ومدخولا بخرافات جعلته عديم الفائدة فى ترقية تلك الامة

وقد جلّى لنا القرآن ما كان فى تلك الامة من زيغ فى المعتقدات وفساد فى الاخلاق ، فصورها لنا أمة عريقة فى الوثنية تعبد من دون الله آلهة شتى ، وتتعصب لوثنيتها الى أقصى حدود التعصب الذميم الذى يشل حركة الفكر عن إدراك الحق ويعمى عين البصيرة عن اجتلاء نوره ، فقال « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » « وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشىء يراد ، ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق »

سرت اليهم هذه الوثنية من وثنية نصارى الرومان على يد عمرو بن لحى بعد أن فشا فيهم الجهل وانقطعت من بلادهم آثار النبوة لتقادم عهد اسماعيل عليه الصلاة والسلام ، فوجدت من عقولهم وقلوبهم مرعى خصيبا ، فملكت موطن الاذعان من عقولهم ، وتغلغلت الى مقر الوجدان من قلوبهم ، ومهد لها الجهل سبيلا الى ذلك الاحتلال الذى أفسد معتقداتهم وعلى توالى الأعوام رسخت فى أعماق شعورهم رسوخا جعلهم يثورون ضد رسول الله ﷺ عندما دعاهم الى الاسلام ، وبين لهم فساد الوثنية ومنافاتها للفطرة ، ومجانبتها لمقتضى العقل ، ويحاولون صده وتنفير الناس عنه ، وليس أدل على رسوخ الوثنية فى قلوبهم من ادعائهم أن عقولهم عليها غلف وأكنة تحجبها عن إدراك مايدعوهم اليه الرسول من عقيدة التنزيه ، وأن آذانهم قد صمت فلا تستمع اليه ، وأن أبصارهم فى غشاوة تحجبها عن إدراك

شواهد الحق فى أقواله وأفعاله ؛ كما قال تعالى فى بيان ادعائهم هذا « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون » وما تلك الاكنة والوقر والحجاب إلا الآفات التى أصابت مداركهم من رسوخ الوثنية فى قلوبهم فأفقدتها ميزة الادراك ؛ وصيرتهم كما وصفهم الله بقوله « لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون »

وصور لنا أخلاقهم وعاداتهم فى صورة تدلنا على مبلغ انحطاطهم ، فهو يحدثنا أنهم كانوا يئدون البنات ، ويقتلون الأولاد خشية الاملاق ، ويشربون الخمر ويزنون سراً وعلنا ، ويقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ويتعاملون بالربا الفاحش ، ويلعبون الميسر ، ويستقسمون بالازلام ، ويرثون المرأة كما يورث المتاع ، ويحرمونها من الميراث ، ولا يعتبرون لها قيمة فى الحياة ، وينكحون نساء الآباء ، ويجمعون بين الاختين ، ويكرهون الفتيات على البغاء ابتغاء عرض فان من حطام الدنيا ، الى غير ذلك من قبائحهم التى نعاها عليهم ، وحرمها عليهم تحريماً باتاً ، وبين لهم سوء آثارها فى حياة الفرد والجماعة

وإن فى أخبار أيامهم وملاحمهم التى دوّنها المؤرخون لما يدلنا أعظم دلالة على ما كان فيهم من الادواء الاجتماعية التى مزقت شملهم ، وقطعت حبال المودة بين قبائلهم ، وجعلتهم شيعاً متباغضة يتربص كل فريق منهم بغيره الدوائر ، ويغير عليه لأوهى الاسباب ، فقد ذكر المؤرخون أنه نشبت حرب ضروس بين بكر وتغلب ابنى وائل ـ وهى المشهورة بحرب البسوس ـ بسبب ضرع ناقة ، فالتهمت مئات من الضحايا البشرية ، ونشبت حرب الفجار الثالث بين كنانة وهوازن بسبب قرد لرجل من بطون هوازن قتله رجل كنانى ، وفضائحهم فى ذلك مشهورة معروفة فى التاريخ ، فكان جو الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر المظلم ملبداً بغيوم كثيفة من الفتن والفوضى والاضطراب ، والعداوات المضطرمة ، والاحقاد والضغائن والغارات

المتواصلة التى لا تهدأ ثائرتها ، ولا يخبو ضرامها ، وكان اعتماد الناس إذ ذاك على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير

فتصور فى نفسك أمة ذلك مبلغ انحطاطها ، هل كان من الميسور أن ينزل فيها القرآن جملة واحدة بالاصلاح العام فيحولها عن تلك الاباطيل طفرة واحدة ، وهل كان استعدادها اذ ذاك يُعدُّها لقبول مافيه من أنواع الهدايات والاقلاع عما كانوا فيه من المفاسد التى أحكمتها الوراثة الزمنية فى نفوسهم حتى صارت جزءا من نسيجهم العقلى ؟

إن دراسة طبائع الشعوب تدلنا على أن الطفرة فى حياة الامم محالة ، وان محاولة تحويل أية أمة تحويلا فجائياً عن المبادىء الاساسية التى صارت بمرور الزمن من عناصر حياتها إنما هى محاولة فاشلة مقضى عليها بالخذلان ، وان استقرار المبادىء الجديدة فى مشاعر الامة لايكون إلا بعد مضى زمن كاف لاجتثاث المبادئ القديمة وغرس بذور المبادىء الجديدة فى محلها ، ومن غفل من زعماء الاصلاح عن تلك الحقائق التى تؤيدها شواهد التاريخ فلا بد أن يكون نصيبه الفشل فيما يقوم به من دعاية الاصلاح

تلك سنة الله فى الامم ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾

فلو أن القرآن نزل جملة واحدة على رسول الله بتلك التعاليم التى هدمت صروح معتقدات العرب الباطلة ، ومبادئهم الخلقية والاجتماعية ، وقام الرسول يحاول أن يحولهم به طفرة عما كانوا فيه من فساد الى ماجاءهم به القرآن من مبادىء الاصلاح لكان من ذلك رد فعل شديد يأتى بعكس النتيجة المطلوبة من إنزاله ، ولما كان استعداد الامة يهيؤها لقبول تعاليمه الحكيمة ، فكان من حكمة الله الذى يعلم طبائع الشعوب أن يأخذهم بسياسة التهذيب التدريجى ليكون تحولهم عما كانوا عليه أشبه مايكون بالسنة الطبيعية فى تدريج الكائنات الحية ، فأنزل اليهم القرآن تدريجيا بحسب المناسبات ودرجة استعدادهم لقبوله ليستل من قرارة نفوسهم جذور المفاسد

ويغرس فى مكانها بذور الهداية ، فكان نزوله على هذا النحو من أقوى العوامل في انجاح دعوته ، وانتشار هدايته ، ولذلك لم يمض على العرب زمن النبوة حتى كانت تعاليم القرآن قد امتزجت بنفوسهم امتزاجا تاما ، وجددت حياتهم تجديداً قطع كل صلة بينهم وبين مفاسد الجاهلية الممقوتة

وعلى هذه السنة الحكيمة فى سياسة التربية التدريجيّة كانت التكاليف الاسلامية تنزل تدريجيا بحسب درجة استعداد الامة لقبولها ، فنجد أن الله كلف الناس أولا بالايمان حتى إذا اطمأنت قلوبهم به فرض عليهم الصلاة ثم الزكاة ثم الصيام ثم الحج ، وأنزل اليهم الشرائع العملية على هذا النحو أيضا ، وحرم عليهم المحظورات كذلك تدريجيا ، حتى إنه لم يحرم عليهم الخمر إلا بعد مضى ستة عشر عاما من مبدأ البعثة المحمدية ، ولم يحرمها من أول الامر تحريماً باتا ، بل أنزل فيها نصا يدل بعيد النظر على وجوب الكف عنها وإن لم يكن قاطعا فى تحريمها ، وهو قوله تعالى ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ ، ثم حرم شربها قرب وقت الصلاة حتى لايدخل الوقت وهم سكارى ، فلما أنست نفوسهم بتحريمها أنزل النص القاطع فيه وهو قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ ؟

فليس من الحكمة أن نغض الطرف عن هذه السياسة الحكيمة فى تربية الامة العربية بنزول القرآن تدريجياً ، وأن نغتر بقول الجاهلين لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة فان ذلك يدل على جهل تام بطبائع الشعوب وطرق إصلاحها

الحكمة الرابعة

تيسير حفظه وفهمه على المسلمين

يعلم كل من درس تاريخ المسلمين من بدء ظهور الاسلام الى ختام نزوله ، وأحاط علماً بالمحن التى أصابتهم ، والشدائد التى انتابتهم ، انه لم يكن من الممكن عادة أن يتفرغوا لدراسة كتاب ممتد النسق بعيد الغاية كالقرآن الكريم لو جاءهم مرة واحدة ، فقد كانوا أميين لايعرفون القراءة ولا الكتابة ، ونشأ الاسلام فيهم وهم بمكة قليلو العدد مستضعفون مضطهدون ؛ ليس لديهم من قوة السلطان ما يحميهم من صولة أعدائهم ؛ ولا من الاموال مايمكنهم من تنظيم معاهد علمية يدرسون فيها كتاب ربهم ، ولا من فراغ الوقت وهدوء البال مايمكنهم من التوفر على حفظ ذلك الكتاب وفهمه ودراسته ، بل أحاطت بهم الشواغل والمحن من كل صوب ، فكانوا مضطرين الى السعى على رزقهم وقوت أولادهم ، والى مقاومة الاضطهاد الذى أثاره عليهم أعداؤهم ؛ وظلوا بمكة ثلاث عشرة سنة وسيف الارهاق والظلم والاضطهاد والعسف والايذاء والتشريد مصلت فوق أعناقهم ، حتى اضطروا الى الهجرة تلو الهجرة عن أوطانهم ؛ ومبارحة ديارهم وأموالهم ؛ ومفارقة أهليهم ؛ والفرار بدينهم أخيراً الى المدينة المنورة عسى أن يجعلها الله تعالى موئلا للاسلام ، ومعتصما للمستضعفين منهم ، فما كادوا يقيمون بالمدينة ويتنسمون نسيم الحرية حتى عصفت بهم ريح الدسائس والفتن والمناوشات التى أثارها اليهود والمنافقون المجاورون لهم فى المدينة ، واضطرمت نيران الحروب بينهم وبين قريش وغيرهم من قبائل العرب الذين تألبوا عليهم ، فكانت بينهم وبينهم سلسلة معارك وغزوات استنفدت كثيراً من قواهم وجهودهم فضلا عما كانوا فيه من إقلال وفقر وتعطيل لمصالحهم الاقتصادية ، فكانت حياة المسلمين طوال هذه

السنين حياة مكافحة وجهاد ، ومقاومة وجلاد لتلك الكتل البشرية التي تجمعت عليهم من كل صوب تريد إطفاء نورهم ، وفتنتهم في دينهم ؛ فلم يكن من الميسور — وهذه ظروف حياتهم — أن يتفرغوا لحفظ كتاب عظيم كالقرآن لو نزل مرة واحدة مهما كان لهم من قوة الحافظة ، وبخاصة اذا علمنا أن ليس المقصود من حفظ القرآن استظهار ألفاظه فحسب ، بل كان المطلوب منهم أن يحفظوه ويفهموا أحكامه وشرائعه ، ويعرفوا مقاصده ومراميه ، ويعملوا بأوامره ونواهيه حتى يستطيعوا الاضطلاع بتحمل أعباء الدعوة الاسلامية بعد رسول الله ﷺ ، ويكونوا أساتذة هذه الامة في فقه الشريعة وفهم أسرارها ، فكان ضرورياً أن تنزل الآيات متفرقة حتى يستطيعوا حفظها وفهمها ، ويتمكنوا من العمل بها ، ويطبع مرانهم على العمل بها ملكة ترسخ في أعماق قلوبهم . وذلك ما كان ، فقد كانت الآيات تنزل متفرقة فيستظهرونها ويفهمونها ، واذا أشكل عليهم فهم شيء منها سألوا عنه رسول الله ﷺ فيكشف لهم عن معناه ثم يعملون به ، فأخذوا القرآن بقوة علما وعملا واعتقاداً . قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه « كان الرجل منا اذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » وقال أبو عبد الرحمن السلمي « حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ وكانوا اذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا »

الحكمة الخامسة

تثبيت فؤاد النبي ﷺ

وهذه الحكمة قد صرح الله تعالى بها في قوله ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ﴾ رداً على قول المشركين ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾

فالآية صريحة فى أن نزوله منجما كان المقصود منه تثبيت فؤاد النبى ﷺ ليتفرغ لتبليغ الدعوة الاسلامية بعزيمة قوية ، وهمة متقدة ، وقلب مطمئن لاتساوره الاحزان ، ولا تحتل ساحته الهموم والاكدار ، التى تكسر شوكة العزيمة وتضعف قوة الارادة ، وتطفىء جذوة النشاط الملتهب ، وتقعد الانسان عن السير إلى المثل الاعلى الذى يتوخاه فى عمله ، خصوصا فى مثل هذه المهمة الكبرى التى يراد بها صقل طبائع النفوس ، وتهذيب الفطر الانسانية واصلاح مافسد من أحوال الامم ، وتوجيه العالم البشرى فى طريق الهدى والرشاد ليصل الى سعادة الدنيا والآخرة .

حاجة الرسول الى التثبيت :

ما كاد رسول الله ﷺ يجهر بالدعوة إلى الله تعالى حتى ثارت عليه عاصفة هوجاء من اضطهاد مشركى أهل مكة له حتى من كان منهم من أقربائه الاقربين كعمه أبى لهب الذى كان يحرض قومه عليه للقضاء على دعوته وهى وليدة فى مهدها ويقول خذوا على يديد قبل أن تجتمع العرب عليه .

فقد وجدوا فى دعوته مصدر خطر شديد على كيانهم وشهواتهم التى استعبدت قلوبهم ، وأعمت بصائرهم عن الحق لما جاءهم ، فأما رؤساؤهم وأصحاب الزعامة والنفوذ من صناديدهم فقد خشوا أن تنجح دعوته ويلتف الناس حوله تأثرا بهدايته وعذب منطقه الذى كان يجذب النفوس اليه ويفعل فيها مالا يفعله السحر ، فيوشك أن يكثر سواد أتباعه فينتزع من أيديهم الرئاسة التى كانوا يجلبون من ورائها لأنفسهم غنما عظيما ، وأبى لهم الكبر أن يتبعوه فيكونوا أسوة بالضعفاء من أصحابه ويزول مالهم من الامتيازات الباطلة ، كما هو شأن المستكبرين فى كل زمان ، فكانوا يحرضون سفهاء العامة عليه ، ويجتهدون فى وضع العقبات فى طريق انجاح دعوته حتى يدب اليأس فى قلبه فيترك الدعوة الى دينه ، وأما الدهماء من العامة

فكانوا يرتعون فى ميدان الشهوات البهيمية الدنيئة ، لايزجرهم ضمير ، ولا يردعهم وجدان ، ولا يعصمهم خلق فاضل ، ولا يكفهم عن غوايتهم قانون عادل ، فلما واجههم الرسول ﷺ بدعايته وجدوا فيها من الحجر على شهواتهم الدنيئة ما نفر نفوسهم عنه ـ وما علموا أنه يدعوهم الى سعادة الدنيا والآخرة ـ فليتحالفوا إذاً مع سادتهم وكبرائهم لاضطهاده والقضاء على دعوته ، وليستمعوا الى تحريضهم على ايذائه هو ومن تبعه ، وليكونوا أداة للشر والاجرام ، وليؤذوه ايذاء شديدا حتى يكف عنهم و ان كان الدافع لهم الى ذلك الايذاء غير الدافع للسادة العظماء

تحالف الفريقان على اضطهاده ، وماتركوا وسيلة من وسائل الايذاء الا اتخذوها فكانوا يستهزئون به حتى ألقوا عليه سلا الجزور وهو يصلى بالمسجد ، ويتبعونه فى الاسواق قائلين هذا ساحر مجنون ، وأخذ طاغيتهم أبو جهل بمخنقه حتى خلصه منه أبو بكر وهو يقول أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وآذوا أتباعه إيذاء تقشعر منه الابدان ، وتهلع له القلوب ، فكانوا ياخذون بعضهم فيضعونه على الرمال فى الرمضاء ويضعون الحجر على صدره ويقولون لانرفعه أو تكفر بمحمد فما يثنيه ذلك عن اتباعه ، وأخذوا أم عمار بن ياسر فشقوها نصفين بين فرسين ، ولما أعيتهم الحيل قاطعوهم وألجأوهم الى شعب أبى طالب ثلاث سنين حتى أكلوا ورق الشجر من شدة الجهد ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يقتسمون مداخل مكة لترويج الدعاية ضده بين قبائل العرب الوافدين الى مكة فى موسم الحج حتى لايستمعوا اليه ، وفى السير كثير من أخبار هذه الفظائع .

كانت هذه الاضطهادات المتوالية ، وذلك التكذيب والعناد الذى أصروا عليه تحدث فى نفس الرسول حرجا وتوجد فى قلبه حزنا ممضاً على أولئك القوم الذين أضحوا ضحية الغواية والضلال ، وكان أجدر بهم أن يكونوا أول من يلبى دعوته ، وهم يعلمون من صدقه وسمو نفسه ونزاهة مبادئه التى دعاهم اليها مالا يعلمه

غيرهم من قبائل العرب النائين عنه ، ولكنه العناد والطغيان يعمى عين البصيرة ويصد صاحبه عن طريق الحق والرشاد

ولم تكن عواصف الفتن التى ثارت عليه مقصورة على مدة إقامته بمكة بل ثارت عليه عواصف أخرى بالمدينة من دسائس اليهود والمنافقين الذين كانوا يؤلبون عليه أعداءه ، وينقضون عهوده ومواثيقه فى أحرج الاوقات ، ويبثون الشبه بين ضعفاء المسلمين ليفتنوهم عن اتباعه ويدبرون المكايد لاغتياله ظلماً وعدوانا

فكان الرسول ﷺ فى معظم سنى الدعوة يلقى من هذه الطوائف المتعددة عنتاً وتكذيبا ، وعناداً واضطهاداً ، وتهما باطلة رموه بها ، ودعايات مزيفة روّجوها ضده ترويجاً لم تهدأ ثائرته إلا بعد أن أظهره الله عليهم

فكان من عناية الله به أن يثبت قلبه فى هذه الفتن المدلهمة حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا

وكان من أهم العوامل فى تثبيت قلبه الشريف ﷺ نزول القرآن منجما على النحو الذى أسلفناه ، يحمل كل نجم منه من دلائل صدقه ﷺ فى دعوى الرسالة مايفحم المعاند ، ويخصم المكابر ، ويقطع ألسنة المكذبين ، ويكبت كيد المستهزئين ، ويقنع عقول المنصفين ، بأنه رسول رب العالمين

ولقد كان تثبيت القرآن لقلب الرسول فى مواطن اللجاج والخصومة بينه وبين أعدائه على طرق شتى :

فتارة كان التثبيت بأنزال قصص الانبياء والمرسلين متفرقة فى أزمنة متطاولة بحسب الحاجة اليها ، ليبين الله له فيها سنته فى جعل العاقبة للمرسلين رغم مايصيبهم فى تبليغ الدعوة من المحن والخطوب ، وسنته فى إهلاك المكذبين المستهزئين مع ما لهم من الحول والقوة ، والملك والسلطان ، ويزداد ثباتا وإقداما على إقدام

وجرأة على المضى فى سبيل هداية الناس ، وإنقاذهم من عماية الضلال ، وقد جاء التصريح بذلك فى قوله تعالى ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾

وتارة كان بأنزال الآيات التى تحضه على الثبات والصبر ، كقوله تعالى ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار ، بلاغ ، فهل يُهلك الا القوم الفاسقون ﴾ وقوله جل ذكره ﴿ واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضَيْقٍ مما يمكرون ﴾ وقوله تبارك اسمه ﴿ واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾

وتارة كان التثبيت بأنزال آيات التسلية والنهى عن الحزن لاعراض قومه عن الهدى ، كقوله تعالى ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ وقوله ﴿ لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين ﴾ وقوله ﴿ فلا تذْهَبْ نفسك عليهم حسرات ﴾ وقوله ﴿ فلعلك تارك بعض مايوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا انزل اليه كنز أو جاء معه ملك انما أنت نذير والله على كل شىء وكيل ﴾

وتارة بانزال آيات الوعيد التى أنذر الله بها المكذبين من قومه أن يصيبهم من العقوبات مثل ما أصاب من قبلهم من الامم الباغية ، كقوله تعالى ﴿ فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا الا الله قالوا لو شاء ربنا لانزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون فاما عاد فاستكبروا فى الارض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ وقوله ﴿ أفأمن أهل القرى أن

يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ؟ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون ، أو لم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾

وتارة بانزال آيات الحجج والبراهين ، التى دحض بها أكاذيب المفترين ، كالآيات التى نزلت فى ابطال الشرك والرد على منكرى البعث والنشور ، وتفنيد شبهات منكرى الوحى والنبوة ، الى غير ذلك

وبالجملة ، فآيات الذكر الحكيم كلها كانت تثبيتا لقلبه عليه الصلاة والسلام ، لانها من جهة كونها معجزة لجميع البشر عن الاتيان بمثلها كانت آية عظمى فى تأييد رسالته ، وعاملا قويا فى تثبيت قلبه ، ومن جهة كونها كانت تنزل بحسب المناسبات عند الحاجة اليها سواء أكانت لتقرير تشريع ، أو للجواب عن سؤال ، أو لتفنيد شبهة ، أو لاقامة حجة ، كانت أيضا من عوامل تثبيت قلبه ، لانها تجعله على بصيرة من أمر ربه ، وتجدد عهد صلته به ، وتخرجه من المآزق الحرجة التى كان يلجئه اليها المشركون

فأنت ترى مما تقدم ذكره أن تنجيم القرآن الكريم مع كونه مقتضى الحكمة الالهية كان ضرورة حتمية لامحيص عنها ، وأنه لو أنزل جملة واحدة ما أتى بالنتيجة المطلوبة منه فى تلك الامة التى كانت عريقة فى الجهل والهمجية

الباب الثانى

جمع القرءان وتدوينه

القرآن فى عهد الرسول ﷺ

كان القرآن ينزل على رسول الله ﷺ منجما — كما قلنا — فيحفظه ويبلغه للناس ويأمر كتّاب الوحى بكتابته ، ويدلهم على موضع المكتوب من سورته ، فيكتبونه فى العُسُب[1] واللِّخافِ[2] والرِّقاعِ[3] وقطع الأديم[4] وعظام الاكتاف والاضلاع ، ويوضع المكتوب فى بيت رسول الله ﷺ بعد أن ينسخ الكتّاب لانفسهم منه صورة ، وانقضى عهده عليه الصلاة والسلام ولم يجمع القرآن كله فى مصحف واحد

قال الخطابى : إنما لم يجمع النبي ﷺ القرآن فى مصحف واحد لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله تعالى الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الامة ، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر » اه

وكان النبى ﷺ يعارض جبريل بالقرآن مرة فى شهر رمضان من كل عام ، فلما كان العام الذى قبض فيه عارضه به مرتين ، روى البخارى بسنده عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها عن فاطمة عليها السلام ، أسر إلىّ النبى ﷺ

---

(١) العسب : جمع عسيب وهو جريد النخل ، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون فى الطرف العريض (٢) اللخاف : جمع لخفة بفتح اللام وسكون الخاء وهى الحجارة الرقاق ، وقال الخطابي صفائح الحجارة (٣) الرقاع : جمع رقعة ، وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد (٤) قطع الاديم : أى قطع الجلد

أن جبريل كان يعارضنى بالقرآن كل سنة وانه عارضنى العام مرتين ، ولا أراه إلا حضر أجلى » وروى من حديث ابن عباس رضى الله عنه قال « كان النبى ﷺ أجود الناس بالخير ، وأجودُ مايكون فى شهر رمضان ، لأن جبريل كان يلقاه فى كل ليلة فى شهر رمضان حتى ينسلخ يَعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن فاذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة

وقد شهد زيد بن ثابت رضى الله عنه العرضة الاخيرة ، ولذلك اختاره أبو بكر رضى الله عنه لجمع القرآن كما سيأتى

ومن الصحابة من كان يحفظ القرآن كله فى حياة رسول الله ﷺ كعبد الله ابن مسعود ، وابىّ بن كعب ، وسالم مولى أبى حذيفة ، ومُعاذ بن جبل ، وزيد ابن ثابت ، وكثير غيرهم ، من أجلِّهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ومنهم من كان يحفظ بعضه

وصفوة القول : أن القرآن كان كله مكتوباً فى عهد رسول الله ﷺ ، ولكنه لم يكن مجموعا فى مصحف واحد ، وكان محفوظا فى صدور الصحابة ، إلا أن منهم من كان يحفظه كله لكثرة ملازمته لرسول الله ﷺ ، ومنهم من كان يحفظ بعضه

جمع القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه

فى مصحف واحد

قبض رسول الله ﷺ والقرآن محفوظ فى الصدور وفيما كتبوه ، فقام بأمر المسلمين بعده أبو بكر الصديق رضى الله عنه بمبايعة الصحابة له ، فحدث فى عهده مانبهه الى وجوب جمع القرآن فى مصحف واحد خشية عليه من التفرق والضياع ، فقد نشبت الحرب بينه وبين أهل الردة من أتباع مسيلمة الكذاب وغيرهم

وكان من أكبر الملاحم التى اشتبكت فيها جموع المسلمين بجموع المرتدين موقعة اليمامة المشهورة ، وفيها قتل كثير من قراء الصحابة رضى الله عنهم ، فلما وصل الخبر الى المدينة هال ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فدخل على أبى بكر الصديق رضى الله عنه وأخبره الخبر ، و بين له مايخشاه من ضياع القرآن إذا استحر القتل فى قراء الصحابة ، واقترح عليه جمع القرآن ، فتردد أبو بكر أولا لأن ذلك أمر محدث لم تكن له سابقة فى عهد رسول الله ﷺ وكان أبو بكر أحرص الناس على اتباع رسول الله ﷺ ومجانبة كل مالم يفعله ، ولأنه كره أن ينزل نفسه منزلة من يزيد احتياطه للدين على احتياط الرسول ، ولـكنه بعد حوار مع عمر اقتنع بصواب الفكرة ، وتجلى له وجه المصلحة فيها ، وعلم أن ذلك الجمع ـ وان لم يفعله الرسول ـ من أعظم وسائل حفظ القرآن الذى تكفل الله بحفظه من الضياع وأنه ليس فيه شىء من الزيادة على احتياط الرسول ، بل هو مستمد من القواعد التى مهدها رسول الله ﷺ ، فأقدم على تنفيذ الفكرة مراعاة لتلك المصلحة ، وكان موفقا غاية التوفيق فيها كما كان موفقا فى غيرها من مهام الامور التى قام بها كحروب أهل الردة ، فأرسل الى زيد بن ثابت ـ بعد استشارة عمر ـ لأنه كان من حفاظ القرآن ، وكتاب الوحى لرسول الله ﷺ ، وشهد العرضة الاخيرة للقرآن فى حياة رسول الله ﷺ ، وكان مع ذلك عاقلا ورعا مأمونا على القرآن غير متهم فى دينه ولا خُلقه ، فلما جاءه عرض عليه أبو بكر فكرة جمع القرآن ، واقترح عليه أن يتولى تنفيذها ، فتردد زيد فى ذلك ، وناقش أبا بكر وعمر فى هذه الفكرة فما زال به أبو بكر حتى اقتنع بصوابها و وجوب تنفيذها ، وشرع فى ذلك فكان يتتبع القرآن و يجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ، و يتحرى أن يكون جمعه مما كتب بين يدى رسول الله ﷺ تحريا دقيقا حتى أتم جمعه

وفى ذلك يقول البخارى رحمه الله « حدثنا موسى بن اسماعيل عن ابراهيم ابن سعد حدثنا ابن شهاب عن عبيد بن السباق أن زيد بن ثابت رضى الله عنه

قال : أرسل إلى أبو بكر مَقْتَلَ[1] أهل اليمامة[2] فاذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضى الله عنه إن عمر أتانى فقال إن القتل قد استحر[3] يوم اليمامة بقراء القرآن ، وانى أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهبَ كثير من القرآن وانى أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر كيف تفعل مالم يفعله رسول الله ﷺ قال عمر هذا والله خير ، فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر ، قال زيد قال أبو بكر إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىَّ مما أمرنى به من جمع القرآن ، قلت كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الانصاري لم أجدها مع أحد غيره ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم ﴾ حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر »

فأنت ترى من هذا الحديث أن جمع القرآن فى مصحف واحد لأول مرة كان فى عهد أبى بكر رضى الله عنه وكان قبل ذلك متفرقا فى العسب واللخاف وغيرها مما كانوا يكتبون فيه ، وكان محفوظاً فى صدور الرجال ، وقد ندب أبو بكر لجمعه زيد بن ثابت لانه كان من أحفظ الصحابة للقرآن ، ومن كتاب الوحى ، وشهد

---

(١) أى عقب قتل أهل اليمامة ، والمراد بأهل اليمامة هنا من قتل بها من الصحابة فى الوقعة مع مسيلمة الكذاب

(٢) اليمامة اسم مكان فى بلاد العرب ، كانت به الوقعة المشهورة بين جيوش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد وجيوش مسيلمة الكذاب ، وتم فتحها على يد خالد

(٣) استحر : اشتد وكثر ، وقد روى أنه قتل من القراء يومئذ زهاء خمسمائة من أجلهم سالم مولى أبى حذيفة

العرضة الاخيرة ، فتوفرت فيه ميزات لم تتوفر فى غيره . ولما شرع زيد فى جمعه اعتمد على مصدرين ، الاول ما كان مكتوبا فى عهد رسول الله ﷺ ، والثانى ما كان محفوظا فى صدور الحفاظ ، وكان يتوثق فى الاخذ بالمكتوب غاية التوثق حتى يتيقن أنه مما كتب بين يدى رسول الله ﷺ ، ولذلك لم يكن يقبل شيئا من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدى الرسول ، يدل على ذلك ما أخرجه ابن أبى داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال قدم عمر فقال من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئا من القرآن فليأت به ، وكانوا يكتبون ذلك فى الصحف والالواح والعسب وكان لايقبل من أحد شيئا حتى يشهد شهيدان » قال السخاوى فى جمال القراء المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله ﷺ ، ولم يعتمد زيد على الحفظ وحده ولذلك قال فى آخر سورة براءة إنه لم يجدها إلا مع أبى خزيمة ، أى لم يجدها مكتوبة إلا مع أبى خزيمة الانصارى (وهو غير خزيمة بن ثابت الذى جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة اثنين) مع أنه كان يحفظها وكان كثير من الصحابة يحفظونها ، ولكنه كان يريد أن يجمع بين الحفظ والكتابة زيادة فى التوثق ، ومبالغة فى الاحتياط

وتم جمع القرآن على هذا النحو من صدور الحفاظ ومما كتب بين يدى رسول الله ﷺ باشراف أبى بكر وعمر ، وكان جمعه فى عهد الصديق رضى الله عنه من أجل مناقبه وأفضل مزاياه ، لانه ضمن للمسلمين حفظ كتابهم من التفرق والضياع ولذلك قال على رضى الله عنه « أعظم الناس فى المصاحف أجراً أبو بكر ، رحمة الله على أبى بكر ، هو أول من جمع كتاب الله » أخرجه ابن أبى داود فى المصاحف بسند حسن

وظلت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر مدة خلافته ، ثم عند عمر مدة خلافته ، ثم عند حفصة بنت عمر بعد وفاة أبيها

تدوين القرءان فى المصاحف

فى عهد عثمان رضى الله عنه

بقيت تلك الصحف التى كتبها زيد بأمر أبى بكر عند حفصة بنت عمر صدراً من ولاية عثمان ، ويومئذ اتسعت الفتوح ، وتفرق المسلمون فى الامصار ، فأخذ أهل كل مصر قراءتهم عن رجل من بقية القراء ، فكان أهل الشام يقرءون بقراءة أُبَيِّ بن كعب ، وأهل الكوفة يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود ، وغيرهم بقراءة أبى موسى الاشعرى ، وهكذا . وكانت وجوه القراءة التى يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الاحرف التى نزل عليها ، فقد نزل القرآن على سبعة أحرف كما ورد فى الاحاديث الصحيحة ، أى على سبع لغات من أشهر لغات العرب للتيسير على الناس فى قراءته خصوصاً وهم حديثو عهد بالاسلام والقرآن ، وما كان أكثر أفراد القبائل النائية ليستطيعوا النطق بلغة قريش إذ ذاك لعدم إلفهم لها ، وظلوا يقرءون بتلك الاحرف المختلفة الى زمن عثمان رضى الله عنه ، وكان أهل كل مصر يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة ، فكان بينهم اختلاف فى وجوه القراءة ، وكان الذى يسمع هذا الاختلاف من أهل تلك الامصار اذا احتوتهم المجامع ، أو التقوا على جهاد أعدائهم يعجب من ذلك ، ويزيده عجباً أن تكون هذه الوجوه كلها على اختلاف ما بينها فى كلام واحد ، فاذا علم أن هذه القراءات مسندة الى رسول الله ﷺ وأنه أجازها لا يمتنع أن يختلج فى صدره بعض الشك اذا كان قد نشأ بعد زمن الدعوة واجتماع العرب على كلمة واحدة وربما أجرى ذلك الاختلاف مجرى مثله من سائر الكلام فرأى بعضه خيراً من بعض ، وجعل منه الصريح والمدخول ، والعالى والنازل ، والافصح والفصيح ، وأشباه ذلك مما يكون فى كلام

البشر ، وهذا أمر إن هو استفاض فى الناس ومَرَدوا عليه خرجوا منه الى المناقضة والملاحاة ، والى أن يرد بعضهم على بعض ، فيقول أحدهم : قراءتى هى الصواب ، ويقول الآخر : كلا بل قراءتى أنا وما أخذت به ، وليس من وراء هذا الا اللجاج والتكفير والتأثيم ، وشبح الفتنة الهوجاء التى تطيح فيها الرءوس وتهراق الدماء

ولقد نجمت بوادر هذه الفتنة يومئذ ، فانه لما كانت غزوة أرمينية وأذربيجان فى أوائل سنة خمس وعشرين من الهجرة اجتمع أهل الشام بأهل العراق ، وكان فيمن غزاها مع أهل العراق حذيفة بن اليمان ، فرأى كثرة اختلاف المسلمين فى وجوه القراءة ، وسمع ما كانت تنطق به ألسنتهم ، حين يأتى كل فريق منهم بقراءة لم تسمع من غيره ، إذ كانوا يتمارون فيها حتى يكفر بعضهم بعضاً ؛ ولم ير عندهم نكيرا لذلك ولا إكبارا له ، بل كانوا قد ألفوه من أنفسهم ، وصار من عادتهم وأمرهم ، ففزع الى عثمان فأخبره بالذى رأى ، وقال أدرك الناس قبل أن يختلفوا فى كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى ، وكان عثمان قد أدرك بوادر الخلاف مما سمعه من أنباء القراء بالمدينة ، اذ كان كل واحد منهم يعلم غلمانه قراءة مخالفة لقراءة غيره ويأخذ كل منهم بأحد الاحرف السبعة التى نزل عليها القرآن ؛ فكان الغلمان يتشاحنون ويتقاتلون اذا سمع كل منهم قراءة مخالفة لقراءته ، وينتهى الامر الى الحفاظ فيتسابون ويؤثم بعضهم بعضاً . فأدرك عثمان أن من وراء هذا الاختلاف شراً كبيرا ، وأن قراء المدينة اذا اختلفوا فغيرهم من أهل الامصار لا بد أن يكونوا أشد اختلافاً ، وصدق ظنه ما أخبره به حذيفة من اختلاف أهل الشام وأهل العراق ، فأعظم رحمه الله أمر هذه الفتنة ، وأكبره الصحابة جميعاً ؛ لانهم علموا أن اختلاف الناس فى كتاب الله مدرجة الى مخالفتهم ما فيه ، ومتى أهملوا بعض معانيه لم يكن بد من أن يتصرفوا ببعض ألفاظه فيوشك أن يكون من ذلك مساغ للتحريف والتبديل فليضعوا اذاً حدا لذلك الاختلاف

وليحسموا مادة النزاع قبل أن يستفحل خطرها و يعظم شرها

أخذ عثمان رضى الله عنه يجمع أعلام الصحابة و ذوى الرأى منهم ليستشيرهم ماذا يفعل فى علاج هذه الفتنة ، فأجمعوا رأيهم على أن يأخذوا الناس بقراءة واحدة من تلك الوجوه المتعددة ، وأن يحملوهم على حرف واحد من الاحرف التى نزل عليها القرآن ، وهو لغة قريش و يلغوا ما عداها ، محتجين بأن القرآن نزل بلغتهم وأن ينتسخوا الصحف التى جمع أبو بكر فيها القرآن ـ وكانت عند حفصة ـ فى المصاحف ، وأن يرسلوا الى كل مصر من الامصار الاسلامية بمصحف منها ، وأن يحرقوا ما عدا تلك المصاحف الرسمية من الصحف حتى لا يجعلوا للناس مجالا للاختلاف فى القرآن

تنفيذ هذه القرارات :

شرع عثمان فى تنفيذ هذه القرارات ، فندب لها أربعة من ثقات الحفاظ ، وهم : (١) زيد بن ثابت ـ وهو الذى تولى جمع القرآن فى مصحف واحد فى عهد أبى بكر ـ (٢) وعبد الله بن الزبير (٣) وسعيد بن العاص (٤) وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ـ وهؤلاء الثلاثة من قريش ـ وأرسل الى حفصه أن أرسلى الينا بالصحف التى عندك فأرسلتها اليهم ، فأخذوا فى نسخها ، وقد وضع لهم عثمان خطة فى كتابة القرآن فقال للثلاثة القرشيين : اذا اختلفتم أنتم و زيد بن ثابت فى شىء فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم[1]

وفى بعض الروايات : أن الذين ندبوا لنسخ المصاحف اثنا عشر رجلا

---

(١) وقد اختلفوا يومئذ فى التابوت ، فقال زيد التابوه ، وقال القرشيون التابوت بالتاء المفتوحة فرفعوا أمرهم الى عثمان فامرهم عثمان ان يكتبوه التابوت بالتاء المفتوحة لانه كذلك فى لغة قريش

وما كانوا يكتبون شيئاً الا بعد أن يعرض على الصحابة ويقروا أن رسول الله ﷺ قرأه على هذا النحو الذى يوجد الآن فى المصاحف

ولما أتموا نسخ المصاحف بلغة قريش أرسل عثمان الى كل مصر مصحفا وأبقى بالمدينة واحدا وهو الذى يسمى بالمصحف الامام ، وأمر بما عداه من كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ، وأرسل الصحف التى نسخوا منها الى حفصة ثانيا

وفى ذلك يقول البخارى رحمه الله « حدثنا موسى حدثنا ابراهيم حدثنا ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فافزعَ حذيفةَ اختلافُهم فى القراءة ، فقال حذيفة لعثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الامة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان الى حفصة أن أرسلى الينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها اليك ، فأرسلت بها حفصة الى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام فنسخوها فى المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم ففعلوا حتى اذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف الى حفصة فأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق »

اشراف عثمان والصحابة على نسخ المصاحف

وكان نسخ هذه المصاحف باشراف عثمان وأعلام الصحابة من المهاجرين والانصار ، وذلك اجماع منهم على أن القراءة التى حمل عثمان الناس عليها درءاً للاختلاف هى التى قرأ بها رسول الله ﷺ ، وهى التى نزل بها القرآن ، وأن ما

عداها من اللغات التى قرىء بها القرآن قد نزل القرآن عليها فى أول الامر توسعة وتيسيرا على الناس حتى تألف ألسنتهم النطق بلغة قريش ، فلما زالت هذه الضرورة باجتماع الناس على لغة قريش لم يكن ثمت داع للاستمرار على القراءة بها ، ولذلك حمل عثمان الناس بموافقة الصحابة على لسان قريش ، وألغى ما عدا ذلك من وجوه القراءات ، يؤيد ذلك ما أخرجه ابن أبى داود بسند صحيح عن سويد بن غفلة قال « قال على لاتقولوا فى عثمان الا خيرا ، فوالله مافعل الذى فعل فى المصاحف الا عن ملأ منا ، قال ماتقولون فى هذه القراءة فقد بلغنى أن بعضهم يقول ان قراءتى خير من قراءتك ، وهذا يكاد يكون كفراً ، قلنا فما ترى ، قال أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف ، قلنا فنعم مارأيت »

﴿ تنبيه ﴾ ظن بعض الناس أن الاحرف السبعة التى نزل عليها القرآن هى القراءات السبع المتواترة الى هذا العصر ، وهذا خطأ صريح ، وانما المراد بالاحرف السبعة اللغات السبع المشهورة من لغات العرب وقد رخص للناس فى القراءة بها فى أول الامر للتيسير عليهم كما قلنا ، الى أن جمعهم عثمان على لغة واحدة منها وهي لغة قريش ، وألغى بقية اللغات ، أما القراءات السبع المتواترة التى يقرأ بها القراء الى عصرنا هذا ، فهى وجوه فى لغة قريش يؤدى بها القرآن ، وطرق للاداء لم تخرج عن الحرف الذى حمل عثمان الناس عليه ، وهذا هو المعتمد عند ثقات القراء والمحدثين فمن ظن غير ذلك فقد باعد عن الحق والصواب

عدد المصاحف التى أرسلت الى الامصار

المشهور عند العلماء أن المصاحف التى أرسلها عثمان رضى الله عنه إلى الامصار خمسة ، وروى ابن أبى داود عن أبى حاتم السجستانى قال : كتب سبعة مصاحف فأرسل الى مكة والى الشام والى اليمن والى البحرين والى البصرة والى الكوفة ، وحبس بالمدينة واحدا

الصحف التى كانت عند حفصة

ظلت الصحف بعد نسخها فى المصاحف عند حفصة رضى الله عنها ، فأرسل اليها مروان لما ولى إمرة المدينة يسألها أن ترسلها اليه فأبت ، فلما توفيت أخذها أخوها عبد الله بن عمر رضى الله عنه . فأرسل اليه مروان يطلب أن يرسلها اليه، فبعثها اليه عبد الله . فشققها مروان وفى بعض الروايات غسلها . وفى بعض الروايات أحرقها[1] وقال « انما فعلت هذا لانى خشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب فى شأن هذه الصحيفة مرتاب » فيظن أن فيها مايخالف المصاحف . فانها كانت صحفا منشورة ، والظاهر انها لم تكن قوية بشكل واحد وقياس واحدفتتخذ مصحفا اماما يصلح للبقاء كالمصاحف التى نسخت لهذا الغرض وجعلت رسمية بالاجماع

الفرق بين جمع أبى بكر وجمع عثمان

نلاحظ مما تقدم أن أبا بكر قصد بجمع القرآن أن يجمعه فى مصحف واحد بعد أن كان متفرقا فى العسب واللخاف وغيرها وفى صدور الرجال ، وكان الحامل له على هذا الجمع خشيته من ضياع شىء من القرآن بموت حفاظه

أما جمع عثمان فكان الغرض منه جمع الناس على لغة من اللغات السبع التى أنزل عليها القرآن وهى لغة قريش حتى لايختلف الناس فى القرآن اختلافا يؤدى بهم الى الفتنة والتكفير والتأثيم ، وكان الحامل له على هذا ما رآه من اختلاف المسلمين فى وجوه القراءة كما تقدم

قال ابن التين وغيره : الفرق بين جمع أبى بكر وجمع عثمان أن جمع أبى بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شىء بذهاب حملته ، لانه لم يكن مجموعا فى موضع

---

(١) وهذه الروايات قد اخرجها ابن ابى داود ، والمشهور أنه أحرقها اقتداء بعثمان فى احراقه ماعدا المصاحف الرسمية

واحد فجمعه فى صحائف مرتبا لآيات سوره على ماوقفهم عليه النبى ﷺ ، وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف فى وجوه القراءة حتى قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات فأدى ذلك بعضهم الى تخطئة بعض فخشى من تفاقم الامر فى ذلك فنسخ تلك الصحف فى مصحف واحد مرتبا لسوره ، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش محتجا بأنه نزل بلغتهم ، وإن كان قد وسع فى قراءته بلغة غيرهم دفعا للحرج والمشقة فى ابتداء الامر ، فرأى أن الحاجة الى ذلك قد انتهت ، فاقتصر على لغة واحدة

وقال الحارث المحاسبى ، المشهور ان جامع القرآن عثمان وليس كذلك ، إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والانصار لما خشى الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام فى حروف القراءات ، فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات على الحروف السبعة التى أنزل بها القرآن ، فأما السابق الى جمع الجملة فهو الصديق ، وقد قال على لو وليت لعملت بالمصاحف الذى عمل عثمان

تحريق المصاحف المخالفة لمصحف عثمان

علمنا مما تقدم فى حديث البخارى أن عثمان لما نسخ المصاحف وأرسل بها إلى الامصار أمر بما عداها من كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ، وقد روى أبو قلابة أنه كتب الى أهل الامصار يأمر بمحو ماعندهم مما يخالف مصحفه ، وأكثر الروايات على أنه أمرهم بتحريقها ، ولذلك استدرك مروان بعده فأخذ الصحف التى كانت عند حفصة من أخيها عبد الله بن عمر فأحرقها

قال ابن بطال ، ويستدل بذلك على جواز تحريق الكتب التى فيها اسم الله بالنار ، وأن ذلك إكرام لها وصون عن وطئها بالاقدام ، وأخرج عبد الرزاق عن طاوس انه كان يحرق الرسائل التى فيها البسملة إذا اجتمعت

تواتر القرآن

تلقى الصحابة القرآن عن رسول الله ﷺ حفظاً وكتابة ، وجمعه أبو بكر من المكتوب بين يدى رسول الله ﷺ ومن صدور الرجال ، وكان ذلك باشراف الحفاظ من أعلام الصحابة فكان إجماعا منهم على صحة المكتوب فى مصحفه ونسخه عثمان فى المصاحف باشراف الحفاظ الثقات من المهاجرين والانصار الذين تلقوه عن رسول الله ﷺ وشهدوا جمعه فى عهد أبى بكر ، وأرسل بنسخه الى الامصار ومنها نقل الناس مصاحفهم جيلا بعد جيل ، وتوارثوه حفظا وكتابة إلى عصرنا هذا ، فكان القرآن متواتراً من طريق الحفظ والكتابة من لدن رسول الله ﷺ ينقله الملايين عن الملايين نقلا مأمونا من الزيادة والنقصان ، وسيظل متواتراً الى أن يرفع من الارض كما ورد فى صحاح الاحاديث

وبذلك كان القرآن هو الكتاب السماوى الوحيد الذى بقى محفوظا كما نزل من عند الله ليكون حجة على البشر أجمعين ، وعلما للهداية فى الاولين والآخرين ، وتحقق بحفظه وعد الله تعالى فى قوله ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ فمن امترى فى آية من آياته ، أو سورة من سوره ، فقد كفر وباء بخزى مبين

ترتيب آيات القرءان وسوره

ترتيب الآيات :

أجمعت الامة على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على النحو الذى نراه اليوم فى المصاحف كان بتوقيف من النبى ﷺ عن الله تعالى . وانه لا مجال فيه للرأى والاجتهاد ، فقد كان جبريل عليه السلام ينزل بآيات القرآن منجمة — على النحو الذى أسلفناه — فيوحيها الى النبى ﷺ ويدله على موضع كل آية من سورتها ،

فكان النبي ﷺ يبلغها للصحابة ، ويأمر كتاب الوحي بكتابتها ، ويقول : ضعوا هذه الآية في المكان الذي يذكر فيه كذا وكذا ، وكان جبريل يعارضه بالقرآن في رمضان من كل عام مرة ، فكان الرسول ﷺ يقرؤه في مدارسته له مرتب الآيات على النحو الذي نراه اليوم في المصاحف حتى اذا تم نزول القرآن كانت كل آياته مرتبة في سورها . وقد حفظها عنه الصحابة بترتيبها ، فلما كان زمن أبي بكر وأراد جمع القرآن لم يكن عمله متناولا لترتيب الآيات ، وانما كان مقصوراً على جمع القرآن بين دفتي مصحف واحد خشية عليه من التفرق والضياع إذا استحر القتل في حفاظه ، ثم نسخ المصحف من عهد عثمان الى عهدنا هذا مرتب الآيات كما تلقاها الصحابة عن رسول الله ﷺ ، وقد نقل الاجماع على هذا كثير من العلماء منهم الزركشي في البرهان وأبو جعفر بن الزبير في مناسباته ، وروى ابن وهب عن مالك قال : إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي ﷺ

ويؤيد هذا الاجماع ما ورد من النصوص الدالة على أن ترتيب آياته توقيفي تفصيلا وإجمالا

فمن هذه النصوص ما رواه الامام أحمد باسناد حسن عن عثمان بن أبي العاص قال : كنت جالسا عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوبه ، ثم قال : أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة : ﴿ ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى ﴾ الى آخرها فهذا الحديث صريح في أن جبريل علمه موضع هذه الآية من سورتها ، وكذلك كان دأبه في كل آية

ومنها ما أخرجه البخاري عن ابن الزبير قال : قلت لعثمان بن عفان : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً ﴾ نسختها الآية الاخرى فلم تكتبها أو تدعها[1] قال : يا ابن أخي لا أغير شيئاً من مكانه . فهذا الحديث صريح في أن إثباتها في مكانها

(١) هذا شك من الراوي هل قال لم تكتبها أو قال لم تدعها مكتوبة ، وكان ابن الزبير يظن أن ما نسخ حكمه تنسخ تلاوته

من سورتها توقيفى ، وأن عثمان وجدها مكتوبة فى المصحف المنقول مما كتب بين يدى رسول الله ﷺ فلم يغيرها من مكانها لان هذا أمر لا مجال فيه للرأى

ومنها ما رواه مسلم عن عمر قال : ما سألت النبى ﷺ عن شىء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بأصبعه فى صدرى وقال : تكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء . فهذا الحديث يدل على أن آيات السور كانت مرتبة معلومة الترتيب فى حياة رسول الله ﷺ وكان معلوماً ما هو مقدم منها وما هو مؤخر ولذلك قال النبى ﷺ لعمر : تكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء فعين موضعها من السورة وتلك الآية هى قوله تعالى ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ﴾ الخ

ومنها ما رواه البخارى عن أبى مسعود رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » أى أجزأتاه عن قيام الليل بالقرآن ، أو كفتاه شر الشيطان ، فالحديث صريح فى أن تعيين موضعهما كان بتعليم الرسول ﷺ وذلك يؤيد ما نقلناه من الاجماع ، والآيتان المذكورتان فى الحديث هما من أول قوله تعالى ﴿ آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ﴾ الى آخر السورة

ومنها ما رواه مسلم عن أبى الدرداء مرفوعا من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال ، وفى لفظ آخر من قرأ العشر الاواخر من سورة الكهف

ويدل على أن ترتيب الآيات توقيفى أيضا ما ثبت فى السنن الصحيحة من قراءته ﷺ لسور عديدة كسورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، وما ورد فى البخارى من قراءته سورة الاعراف فى صلاة المغرب ، وروى النسائى أنه قرأ سورة « قد أفلح المؤمنون » فى صلاة الصبح ، وروى الطبرانى أنه قرأ سورة الروم فى صلاة الصبح ، وروى البخارى ومسلم أنه قرأ سورة الم تنزيل (السجدة)

وسورة هل أتى على الانسان فى صبح يوم الجمعة ، وروى مسلم أنه قرأ سورة (ق) فى الخطبة ، وفى البخارى أنه قرأ سورة (والنجم) على الكفار بمكة ، وفى مسلم أنه قرأ سورة (اقتربت) وسورة (ق) فى صلاة العيد ، وفى مسلم أيضا أنه قرأ سورة (الجمعة) وسورة (المنافقين) فى صلاة الجمعة ، إلى غير ذلك ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقرأ هذه السور مرتبة الآيات بمشهد من الصحابة ، فتلقوا عنه ترتيب الآيات ، وما كان الصحابة ليرتبوا القرآن ترتيبا مخالفا لترتيب الرسول وهم أحرص الناس على اتباعه ، فثبت بهذه النصوص أن ترتيب الآيات توقيفى لامجال للرأى فيه ، وعلى ذلك انعقد الاجماع ، فليس لاحد من الناس أن يغير فى ترتيب الآيات ، فيقدم بعضها على بعض ، فان ذلك بدعة ضالة لايجوز الاقدام عليها

ترتيب السور :

أما ترتيب السور وتقديم الطوال منها[1] ثم تعقيبها بالمئين (٢) ثم بالمثانى (٣) ثم بالمفصل (٤) فهذا هو الذى وقع فيه الخلاف بين العلماء . وأشهر مذاهبهم فى ذلك ثلاثة :

الاول : أن ترتيبها كان باجتهاد الصحابة . وقد جنح الى هذا الرأى الامام مالك بن أنس إمام دار الهجرة . والقاضى أبو بكر فى أحد قوليه

الثانى : أن ترتيبها كان توقيفيا من رسول الله ﷺ ما عدا الانفال وبراءة فان وضعهما فى موضعهما كان باجتهاد عثمان رضى الله عنه ووافقه عليه الصحابة . وممن ذهب لى ذلك البيهقى المحدث المشهور فى كتاب المدخل . والسيوطي فى كتاب الاتقان

---

(١) الطوال ، هى اطول سور القرآن وأولها سورة البقرة (٢) المئين : هى السور التى تلى السور الطوال وسميت بذلك لان كل سورة منها تزيد عن مائة آية أو تقاربها (٣) المثانى ماولى المئين فهى ثوان للمئين والمئون لها أوائل ، وآياتها أقل من مائة (٤) المفصل : ماولى المثانى من قصار السور

الثالث : أن اتساق السور كاتساق الآيات والحروف كان بتعليم النبى ﷺ وقد ذهب الى ذلك جمع كبير من العلماء . منهم أبو بكر بن الانبارى والكرمانى والطيبى وأبو جعفر النحاس وآخرون غيرهم

استدل القائلون بأن ترتيبها كان باجتهاد الصحابة بأن مصاحف السلف من الصحابة كانت مختلفة فى ترتيبها فمنها ما رتبت فيه السور على حسب نزولها فجعل أوله سورة اقرأ ثم المدثر ثم نون ثم المزمل . وهكذا الى آخر السور المكية ثم السور المدنية على حسب نزولها كالمصحف الذى نسبوه الى على رضى الله عنه ، ومنها ما رتب على خلاف ذلك كمصحف ابن مسعود الذى جعل أوله البقرة ثم النساء ثم آل عمران ، وكمصحف أبى بن كعب . ولو كان ترتيب السور توقيفياً لما كان بينها اختلاف فى ذلك

وهـذا الاستدلال ضعيف من وجهين: الأول ، أنه قد ورد فى الأحاديث الصحيحة ما يدل على أن ترتيب بعض السور كان معلوماً فى حياة رسول الله ﷺ وسيأتى ذكر بعضها . الثانى : أن زيد بن ثابت الذى أسند اليه عثمان رئاسة الجمع الذين رتبوا مصاحفه ونسخوها قد شهد العرضة الاخيرة للقرآن ، وعلم ترتيب السور من رسول الله ﷺ وليس من المعقول أن يحدث من عنده ترتيباً للسور غير ماعلمه من رسول الله ﷺ لان ذلك لم يكن من عادتهم ، فلا بد أن يكون ترتيبه للسور هو عين ما تلقاه من رسول الله ﷺ ولذلك لم يرتض المحققون هذا الرأى

واستدل أصحاب المذهب الثانى على أن ترتيب السور ما عدا الانفال وبراءة كان توقيفياً بما رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال : قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم الى الانفال وهى من المثانى والى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموهما فى السبع الطوال ؟ فقال عثمان كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد فكان اذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول :

« ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا » وكانت الانفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتهما فى السبع الطوال . فهذا الحديث صريح فى أن وضع الانفال وبراءة فى موضعهما من المصحف كان باجتهاد عثمان لانه نسب وضعهما الى نفسه ولم يسنده الى رسول الله ﷺ ، وأما ماعداهما من بقية السور فلا بد أن يكون عثمان قد اتبع فيه ما علم من الرسول ﷺ

وقد نازعهم أصحاب المذهب الثالث فى الاستدلال بهذا الحديث : أما من جهة سنده فقد قالوا ان الترمذى ـ وهو أحد رواته ـ قال فيه : انه حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسى عن ابن عباس اه . وقد راجعت الجزء الحادى عشر من تهذيب التهذيب لابن حجر فاذا به يقول : ان المحدثين اختلفوا فى يزيد هذا هل هو يزيد بن هرمز المشهور بأنه ثقة أو هو غيره ثم قال : والصحيح أنه غيره . وقد قال على بن المدينى : ذكرت ليحيى بن سعيد قول ابن مهدى ان يزيد الفارسى هو ابن هرمز فلم يعرفه ، وكفى بذلك دليلا على جهالة حاله ، وقال أبو حاتم فيه : لا بأس به . أقول : ومثل هذا الرجل الذى لم يعرف حاله لا يصح الاعتماد على حديثه الذى انفرد به فى ترتيب القرآن ، وأما من جهة متنه فان التمسك به يثير غبار إشكالات نحن فى غنى عنها لانه يدل على أن آخر الانفال لم يكن معلوماً بيقين ، وكذلك أول براءة بدليل أن عثمان ظن أن براءة من الانفال ولذلك لم يضع بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، وهذا يفتح باباً واسعا لشبهة فرقة ضالة جوزت الزيادة والنقصان فى القرآن وذلك باطل باتفاق السلف والخلف ويبعد جداً أن لا يبين الرسول ﷺ آخر الانفال وأول براءة ويضعف التمسك به زيادة عما سبق أن رسول الله ﷺ عارض جبريل بالقرآن فى آخر سنة من حياته مرتين فأين كان يضع هاتين السورتين فى قراءته ، فالتحقيق إذاً أن وضعهما فى موضعهما

توقيفى وان فات ذلك عثمان أو نسيه وأن بسم الله الرحمن الرحيم لم تكتب فى أول براءة لانها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من بقية السور

واستدل جمهور العلماء على أن اتساق السور كاتساق الآيات كلاهما توقيفى بأنه ورد فى أحاديث كثيرة أن ترتيب بعض السور فى عهد رسول الله هو عين ترتيبها فى المصاحف التى نسخها زيد بأمر عثمان ، منها ماروا البخارى عن ابن مسعود يقول فى بنى اسرائيل والكهف ومريم وطه والانبياء : إنهن من العِتاق الأُوَل[1] وهُنّ من تِلادى[2] » فذكرها نسقاً كما استقر ترتيبها فى المصحف . وروى البخارى أنه ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ والمعوذتين ، فذكرها مرتبة كما هى فى المصحف ، وروى مسلم أنه ﷺ قال اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران . فهذه الاحاديث وما شاكلها تدل على أن السور المذكورة فيها كان ترتيبها مسنداً الى الرسول ، فاذا أضفنا الى ذلك أنه عليه الصلاة والسلام قرأ القرآن كله بمشهدمن زيدبن ثابت وأن زيداً اختاره أبو بكر لجمع القرآن لقوة الثقة به وكذلك اختاره عثمان رئيساً لمن نسخوه فى المصاحف تيقنا أن هذا الترتيب الذى عمله زيد هو ماعلمه من رسول الله ، وهذا مايطمئن اليه القلب ، وهو ماجنح اليه جمهور العلماء

التزام ترتيب السور فى كتابة المصحف دون القراءة

اتفق العلماء على أن هذا الترتيب إنما يجب التزامه فى كتابة المصاحف ، أما فى القراءة فليس بواجب ، يدل على ذلك حديث عائشة فى البخارى حيث قالت للعراقى الذى سألها عن تأليف القرآن « لايضرك أيةً قرأت » وقد حمله جمهور المحدثين على أنه مخير فى القراءة بأية سورة أراد دون أن يلتزم الترتيب ، قال

---

(١) العتاق جمع عتيق وهو القديم ، والمعنى انهن من قديم ما نزل
(٢) التلاد قديم الملك بخلاف الطارف ، والمراد أنهن من اول ما حفظ من القرآن

ابن بطال « لانعلم أحداً قال بوجوب ترتيب السور فى القراءة لاداخل الصلاة ولا خارجها ، بل يجوز أن يقرأ الكهف قبل البقرة والحج قبل الكهف مثلا ، وأما ماجاء عن السلف من النهى عن قراءة القرآن منكوساً فالمراد به أن يقرأ من آخر السورة الى أولها ، وكان جماعة يصنعون ذلك فى القصيدة من الشعر مبالغة فى حفظها ، وتذليلا للسان فى سردها ، فمنع السلف ذلك فى القرآن فهو حرام فيه » اه

وإنما نبهت على ذلك لانى رأيت بعض المتشددين ينكرون على من فعل ذلك ويتهمونه بمخالفة السنة ويغمزونه فى دينه ظنا منهم أن النهى عن قراءة القرآن منكوساً يشمل تقديم بعض السور على بعض فى القراءة خصوصاً فى الصلاة ، وهذا ما لم يقل به أحد من السلف والخلف ، بل إن فعل الرسول نفسه صريح فى تخطئة ظنهم ، لانه ثبت فى حديث حذيفة أنه قرأ النساء قبل آل عمران فى الصلاة ، فدل فعله على أن الترتيب غير ملتزم فى القراءة

والى هنا انتهى البحث المتعلق بمتن القرآن الكريم ، فلنشرع فى المقصود من الرسالة وهو البحث في هدايات القرآن ومقاصده

الباب الثالث
الغرض من انزال القرءان

أنزل الله تعالى القرآن الكريم لغرضين أساسيين ، الاول تأييد الرسول ﷺ فى دعوى الرسالة ، والثانى هداية النوع البشرى ـ فى طور رشده واستقلاله ـ إلى مناهج السعادة ومسالك الرشاد

أما الغرض الاول فقد أشار الله تعالى اليه بقوله فى معرض الرد على أعداء الرسول الذين طالبوه ببعض الخوارق الكونية كخوارق الرسل السابقين ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم وان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ فبين أن القرآن أعظم من جميع الخوارق التى أتى بها الرسل وأشد تأثيراً فى جذب النفوس إلى الهدى ، لانه آية مرتكزة على قواعد العلم والعقل ، وهى المناسبة لمدارك النوع البشرى فى طور استقلاله العلمى والفكرى ، ولا يمكن أن يمترى فيها كما امترى الناس فى الخوارق الكونية فظنوها ضربا من السحر ، وان ما أحدثه القرآن من الانقلاب العظيم فى العالم الانسانى لمعجزة كبرى ما كان ليتأتى حصولها بجميع الآيات التى جاء بها الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وقد أدرك هذا أحد فلاسفة فرنسا فذكر فى كتاب له قول دعاة النصرانية إن محمداً ﷺ لم يأت بآية على نبوته كآيات موسى وعيسى ، ورد عليهم بقوله « إن محمداً ﷺ كان يقرأ القرآن خاشعاً أواها متألما فتفعل قراءته فى جذب الناس الى الايمان مالا تفعله جميع آيات الانبياء الاولين [1] » اه

وليس من غرضنا الآن الافاضة فى هذا الموضوع فان له مكاناً آخر هو به أملك ، وسنفرد له رسالة خاصة إن شاء الله

وأما الغرض الثانى فهو الذى جعلناه نصب أعيننا فى هذه الرسالة وما سيتلوها

---

(٢) كما جاء فى كتاب (الوحى المحمدي)

ان شاء الله من الرسائل التى نفصل فيها أنواع هدايات القرآن ، وشدة احتياج البشر الى تلك الهدايات السامية

وقد صرح الله تعالى فى كثير من الآيات بأنه أنزل القرآن لذلك الغرض الجليل ، وهو هداية النوع الانسانى ليوجه عقولنا وأفكارنا وانتباهنا الى تنور سر الهداية من آياته ، حتى لا نغفل عنها فنكون كاليهود الذين حُمِّلوا التوراة فلم يفقهوا معناها ، ولم يهتدوا بما فيها من هدايات الله كما قال تعالى ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ بل اعتدوا عليها بالتحريف وأدخلوا فيها الاوضاع التى اختلقها أحبارهم ونسبوها الى الله ليشتروا بها عرضا فانيا من حطام الدنيا . فلبسوا الحق بالباطل واستحقوا وعيد الله بقوله ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾

وإليك بعض الآيات التى صرح الله فيها بذلك الغرض من انزال القرآن . قال تعالى ﴿ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ﴾ وقال ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾ وقال ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصَّلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ وقال ﴿ ياأيها الناس قدجاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ وقال ﴿ ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾ وقال ﴿ وننزل من القرآن ماهوشفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ وقال ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾

نزل القرآن بتلك الهداية العليا وقد استولى الضلال على العقول . وتحكمت الاهواء والشهوات فى النفوس . وعم الظلم جميع الامم والشعوب . فحمل بفيالقه على الضلال والاهواء والظلم حملة عنيفة بددت جيوشها المتغلبة على العقول وانتزعت أصولها الراسخة فى أعماق المدارك . وصاح بالعقل البشرى صيحة ايقظته من سباته

العميق ونبهته الى مكانه من هذا الوجود . و بسط أنوار هدايته فى الامم فبددت مافيها من ظلمات القرون الغابرة . وأنارت لها مسالك النهوض والرقى فقامت الامم من رقدتها تسعى الى الكمال سعيا حثيثا . فكان ما كان من ذلك الرقى الذى لم يشهد له العالم من قبل مثيلا

وقد بنيت تلك الهداية على عدة أمور أساسية نذكرها اجمالا ثم نفصلها ان شاء الله فى الرسائل الآتية

هدايات القرءان

(١) هداية البشر الى ماجهلوه من حقيقة الألوهية

(٢) هدايتهم الى ماجهلوه من حقيقة اليوم الآخر وما فيه من بعث و نشور و ثواب و عقاب ، وسنة الله فى جزاء المحسنين و المسيئين

(٣) هدايتهم الى ماجهلوه من عالم الغيب كالملائكة و الجن

(٤) هدايتهم الى ما ضلوا عنه من حقيقة النبوة والرسالة ، ووظائف الانبياء و الرسل عليهم الصلاة والسلام

(٥) هدايتهم الى سنن الله فى الاجتماع البشرى ، والى عوامل رقى الأمم و انحطاطها ، وحياتها وموتها ، وقد بينها القرآن فى قصص الرسل والامم الماضية

(٦) تنبيههم الى سنن الله الكونية ، وما فى العوالم المحيطة بهم من الخصائص والقوى الطبيعية التى يهتدون بها الى معرفة خالقهم ، و ينتفعون بها فى مصالحهم الحيوية

(٧) هدايتهم الى العبادات التى تصل أرواحهم بخالقهم ، و تزكى نفوسهم ، و تصقل فطرهم ، وتهذب اخلاقهم ؛ وتقوى رابطة المحبة بينهم

(٨) هدايتهم الى الاخلاق الفاضلة التى تسمو بالنفوس الى ذروة الكمال ، و تحذيرهم من المفاسد المهلكة للافراد والأمم

(٩) هدايتهم الى الشرائع العملية ، والاصلاحات المالية والاجتماعية والحربية

(١٠) هدايتهم الى أسمى قوانين العقوبات التى تكفل صيانة الأمن ، وردع المجرمين عن الاجرام والعدوان

(١١) هدايتهم الى أسمى المبادىء الاجتماعية التى ترقى جميع طبقات الامم ، والى حقوق المرأة التى هضمت فى كثير من العصور

(١٢) هدايتهم الى أقوم طرق الحكم الذى يصون حقوق الافراد والجماعات

(١٣) تفنيد ما وقعت فيه الأمم من الضلال فى معتقداتها ، والفساد فى أخلاقها وتقاليدها

(١٤) هدايتهم الى تحرير عقولهم من دجل المخرفين من رجال الأديان

وبالجملة فالقرآن الكريم هو المثل الاعلى للهدايات الالهية ، والدواء الناجع لأمراض الأمم ، ولا بد أن يأتى على العالم الانسانى يوم يعرف فيه فضل القرآن فى هدايته وعلاج أمراضه بعد أن تصهره نيران الفجائع والخطوب والفتن والاضطرابات التى ارتكس فيها بدوافع الأهواء والمطامع الجشعة والمبادىء الزائفة ، والآراء الثورية الهدامة لمقومات الحياة ، والتعاليم المادية التى أفسدت العقول ، وطمست نور الفطر والنزعات الالحادية التى روجها المضلّون فى كثير من البلدان ، فيقبل على القرآن إقبال الظمئ على نمير الماء وإذ ذاك يظهر مصداق قوله تعالى ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ وان ماثار في أوروبا فى هذا العصر من عواصف الفتن هو الذى سيلجىء العالم الغربى فى يوم ما الى اعتناق الاسلام واستمداد الحياة من القرآن الذى أحيى موات الامم القديمة . وسيكون هو الروح التى تحيى موات الامم الجديدة فتبارك الله الذى هدانا به الى الحق والى الصراط المستقيم

و ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً

سنصدر إن شاء الله عدة رسائل نشرح فيها تلك الهدايات ، وتأثيرها فى حياة نسان ، ونسأل الله التوفيق والمعونة ، إنه ولى التوفيق وهو حسبى ونعم الوكيل

مصادر الكتاب

الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى
التبيان فى بعض مباحث القرآن المرحوم الشيخ طاهر الجزائرى
صحيحا البخارى ومسلم و بقية الكتب الستة المعتمدة
فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر
إرشاد السارى شرح صحيح البخارى للقسطلانى
تفاسير ابن جرير الطبرى ، والحافظ ابن كثير ، والفخر الرازى ، والآلوسى والقرطبى (الجزء الاول) ؛ وفضائل القرآن لابن كثير
تاريخ التشريع الاسلامى للمرحوم محمد بك الخضرى

شكر واجب

وإن أنس لا أنسى أن أتقدم بواجب الشكر الى حضرة الاستاذ محب الدين الخطيب صاحب المواقف المشهورة فى الذود عن الاسلام وكبت أعدائه فقد كان لاناته وعنايته و صبره ودقة ملاحظاته فى تصحيح هذه الرسالة أكبر الأثر فى إبرازها فى ثوبها الانيق . وإن يكن تواضع الاستاذ يأبى علىّ الاشادة بفضله ، والتنويه بحسن مآثره ، فان ذلك لا يمنعنى من القيام بواجب شكره ؟

حسين سامى

نداء عام للمسلمين

يا معشر المسلمين ، يا أبناء الغزاة الفاتحين ، والهداة المصلحين ، لقد علمتم ما أورثه القرآن الكريم لاسلافكم الطاهرين ، من العزة والسيادة ، والعظمة والقوة ، والسلطان والصولة ، والعلم والحكمة ، والحضارة والمدنية ، التى ذاقت فيها الشعوب طعم العدل والحرية ، وفاقت حضارة الاغريق والرومان والفرس ، ومن قبلهم من الامم كالفينيقيين والاشوريين والبابليين وقدماء المصريين الفرعونيين ، ولم تدانها حضارة الغربيين فى القرن العشرين الذى ينعتونه بأنه عصر النور والعلم والحضارة الباهرة ، بينما تعصف فيه عواصف الفتن بالعالم البشرى فتزعجه عن مستقر الامن والطمأنينة ، وتسلب فيه حقوق الامم المستضعفة التى لاتجد لها ناصراً ومعيناً تحت ستار الاسماء الخادعة من الوصاية والانتداب وغيرهما من الالفاظ التى مهر فى ترويجها رجال الغرب ليسلبوا بها مابقى بأيدى المسلمين من تراث المجد الذى ورثوه عن أسلافهم الاولين ، وعلمتم أن ذلك المجد ماوصل اليه آباؤنا الابالقرآن الكريم. ولو رجعتم الى التاريخ الذى هو مرآة حياة الامم لحدثكم كيف سرت نهضة أسلافكم الى أمم الغرب من بلاد الاندلس التى شع من جامعاتها ومدارسها ضوء العلم والحكمة فأنار لتلك الامم مسالك الرقى ، حتى نهضت نهضتها الحاضرة ، وأصبحت تتمتع بثمار مدنيتنا وتنكر علينا أنا كنا أساتذتهم فيما يفخرون به من علم وثقافة وصناعة ، وها أنتم ترون أن الزمن قد دارت دورته فأصبحت مقاليد النهضة بأيدى الغربيين وخسرنا كل شىء لما أعرضنا عن القرآن الكريم ، ولكن لايهولنكم ماوصلوا اليه ، فتلك مدنية قائمة على بركان من المطامع الجشعة يوشك أن ينفجر فيحطم دعائمها تحطيما ، فحافظوا على كتابكم واستمدوا منه روح الحياة الفاضلة وربوا عليه أبناءكم وأحفادكم ، حتى اذا أزفت الآزفة وانفجر البركان وصارت الامم فى ظلام ، كان القرآن هو الروح الذى يحيى الله به الامم مرة ثانية ، والسلام عليكم ورحمة الله ؟

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
١٢	الباب الاول ـ القرآن الكريم
١٤	كيفية نزول القرآن
١٥	شبهة المشركين فى تنجيم القرآن، والرد عليها
١٨	الحكم فى تنجيم القرآن:
١٩	الحكمة الاولى
٢٤	» الثانية
٢٦	» الثالثة
٣١	» الرابعة
٣٢	» الخامسة
٣٨	الباب الثانى ـ جمع القرآن وتدوينه
	القرآن فى عهد الرسول ﷺ
٣٩	جمع القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه فى مصحف واحد
٤٣	تدوين القرآن فى المصاحف فى عهد عثمان رضى الله عنه
٤٦	اشراف عثمان والصحابة على نسخ المصاحف
٤٧	عدد المصاحف التى أرسلت الى الامصار
٤٨	الصحف التى كانت عند حفصة
٥٠	الفرق بين جمع أبى بكر وجمع عثمان
٥٠	تواتر القرآن
٥٠	ترتيب آيات القرآن وسوره
٥٠	ترتيب الآيات
٥٣	ترتيب السور
٥٦	التزام ترتيب السور فى كتابة المصاحف دون القراءة
٥٨	الباب الثالث، الغرض من إنزال القرآن:
٥٠	الاول أن يكون آية الرسالة
٥٠	الثانى، أن يكون هداية عامة لجميع البشر
٦٠	هدايات القرآن إجمالا
٦٢	مصادر الكتاب
٦٣	نداء عام للمسلمين

تصحيح

فى صفحه ١٥ سطر ١٢ وأقوال صوابه والاقوال وفى صفحة ٣٥ سطر ٢٢ ويزداد صوابه ليزداد